

احمد علي



تحت وسادتي

مقالات واعترافات وذكريات



تَحْتَ وَفِی سَادَتِی
مَقَالَات و اعترافات و ذکریات

★ د. أحمد علّبي: تحت إِساتي، مقالات واعترافات وذِكرات

★ الطبعة الأولى ١٩٨٦

★ جميع الحقوق محفوظة

★ الناشر: دار القارابي، بيروت

ص. ب. - ٣١٨١ / ١١، المركز الرئيسي

برقياً - دافارابي

تلكس - ٢٢٩٢٥ LE

هاتف - ٣١٧٢٠٥

★ الغلاف والرسوم الداخلية: عبدالله ف. كحيل

أحمد علي

تحت وسادتي
مقالات واعترافات وذكريات



١٤٨٦

إلى
”حسين مرقه“

للهِ نَسَاكَ وَالْمَفْكَرَ وَالْمَنْضِلَ وَالْقَدِيرَ .
وَوُثِّقَ لَنَا فِيهِ الْمَوَدَّةُ وَالْعَطَاءُ تَسْتَعْلَهُ
وَسَمِئَ اللَّهُ ، وَفِي الْمُنَابَرَةِ وَالْإِصْرِ الْقَدِيرَةِ وَنَبْرَاسًا .

الروضة البهية

بقلم: جيب صادق

في المأثور من القول إن المرء لا يلج ماء النهر مرتين
اثنين، مهما اجتهد، بل مرة واحدة لا أكثر. فهو،
من هنا، يجد نفسه محكوماً بالبقاء المؤبد في مصب
التحولات المستمرة ما استمرت حركة المياه في
بجراها، ثم ما استمر، هو ذاته، في ضياقة هذا الخير
الدافق.

هناك، إذن، فعلٌ ولادة متواصلٌ يجري في أحشاء
النهر أو، بكلام آخر، هناك جديد يتدفق أبداً في
هذا الشريان المائي، وذلك برغم تشابه العناصر في
محتواه، وبرغم تماثل الصور في الشكل.

يسوقني إلى هذا القول وجه مغاير تبدى لي، على
حين فجأة، في تلك الأوراق المرهفات التي مسح عليها
بقلمه الثري السُّلُهم الصديق أحمد عُلبي، فصارت إلى
خضرة دائمة وصارت إلى تآلق لا يخبو. لقد تمثل هذا
الوجه المغاير في جديد من الأثر الأدبي تلامح في متون
هذه الأوراق، بجلاء وسطوع، فوقعت منه على مزيد

من المتعة الروحية وعلى مزيد من الفائدة الأدبية.

وإذ أشير، هنا، إلى هذا « الجديد » فإنما أقصد إلى بيان علاقتي الخاصة بتلك الأوراق التي صارت، على يديّ صنّاع ماهر، إلى خضرة دائمة وإلى تآلق لا يخبو.

وفي هذا المجال أستدرك فأقول بأنه لا يسعني الكلام على طبيعة العلاقة التي تشدني إلى الصديق أحد، لكونها ذات عراقة وسعة وغنى يتعذر عليّ، معها، الخوض في عُبابها الجامح أو الوقوف عند شواطئها المتراميات. جسبي، هنا، من الاستطاعة إلقاء الضوء على طبيعة علاقتي بهذه الأوراق، وحدها دون غيرها، فهي تتسم بخصوصية دافئة وتتمتع بجو رائق حميم. إذن هي لم تكن وليدة الفرصة الثمينة التي أتاحها لي أحد، قبل أيام قلائل، إذ استودعني أوراقه الغاليات لفسحة من الوقت تكفي لاستنشاقها، بتأنٍ، والتملّي من عبيرها الفواح الطازج. وهي، بعد، في طريقها إلى دار النشر لتخرج منها إلى الناس نتاجاً أدبياً جديداً ينضاف إلى سابقه في خط بيانيّ صاعد، من شأنه أن يعطي صورة باهرة عن الخصوبة والجودة وصدق الالتزام.

أقول إن هذه العلاقة الخاصة لم تكن وليدة تلك الفرصة، على أهميتها، بل كانت، في الواقع، وليدة ستّ من السنوات السّان بالأحداث الجسام والمتغيرات العميقة على مستوى الوطن بأسره. فعلى امتداد هذه السنوات السّان كانت هذه الأوراق تتوالد، تبعاً، متحدية، بإرادة واعية، فصول الأعاصير والزلازل، مستوية على مرتبة عالية من النضج والسّداد والأناقة.

وعلى امتداد هذه السنوات بالذات كنتُ على موعد معها مقيم، تلك الأوراق، فأشدها، بجرص ومتعة، كيف تتوالد وتتنامى، رغم فصول الأعاصير والزلازل، وكيف تترامى ظلالها وتتدلّى قُطوفها في ما يشكّل، معاً، روضة مُثقلة بصنوف الثمر والزهر والطير.

من هنا يسعني القول بأنّي قد حظيت، وحدي من دون الآخرين جميعاً، بالاطّلاع، مرتين اثنتين، على هذه الصفحات النابضة بأوجاع الناس وأحزانهم، الناطقة بأشواقهم وإراداتهم والطموحات. ففي المرة الأولى رأيتني أقبل عليها بشغف وهي منثورة، بدراية حاذقة، في الحقول المخصّصة لثأر الأدب والفن في صحافتنا اليومية والأسبوعية. وفي المرة الثانية بشغف أقوى وهي مجتمعة في أسرة واحدة يشدُّ بعضها بعضاً، فتزداد تماسكاً وصلابة، وتتضاعف حُجّةً وبيلاً، الأمر الذي جعلها تبدو أبهى حُسناً وأكمل تكويناً وأصوب رأياً.

صحيح أن المادة الكتابية بقيت هي إياها في الحالين، لم يطرأ عليها عارض من تغيير أو تعديل، إنما صحيح أيضاً أن هذه المادة عينها قد برزت، في حالتها الثانية، على جانب أعظم من الوضوح والنضارة والتكامل. وهذا الواقع إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على المهارة في التقاط سر الأشياء، والبراعة في اختيار الملائم لجسد هذا السر من خزائن اللغة والأساليب. يبقى أن حجر الزاوية في عبارة القول لا يتجسّد إلا في بلاغة الصديق للتعبير عن شؤون الحياة وشجونها، خصوصاً في مراحل المخاضات الكبرى كمثّل المرحلة

التي تخوض غمارها راهتاً، فهي مشخنة بالمخاطر
والانبيارات، ولكنها، رغم ذلك، مكتنزة بالإرادات
المتحدية والاحتالات الجميلة.

لعلها تلك علامة المستوى في العمل الإبداعي على
اختلاف تجلياته وتباين صور تحققه. فسواء في ميدان
الأدب أو الفن، أو في غير هذا وذاك من ميادين،
يبدو الأثر الإبداعي الوازن مترعاً، أبداً، بالفتوحات
وخوارق الكشف.

فعلى سبيل المثال قد يعين المرء نظره في لوحة فنية
مستجلباً بواطنها المستخفية، إلى أن يطمئن، في قرارة
نفسه، إلى أنه قد وصل إلى غايته ظافراً. وإذا به
يكتشف، حين يعود إليها ثانية، أن سرّاً من أسرار
جالها، كان مستغلّقاً عليه قبل، يُسفر عن وجهه الآن
فيخطف بصره ويأسر منه القلب.

أرأيتَ إلى مياه النهر كيف تستقبلك بالولادات
العداوى على نحو مستمر، ما استمر بقاؤك في حوضها
الحرير المنعش!

★ ★ ★

هذا قليل من كثير أقتطفه، على عجل، من حكاية
هذه الأوراق في وجهيها جميعاً: ذلك الموزع شاعراً
وطلاوة على مطارج القول الجميل، وذاك المنعقد في
مجلس الوحدة استكمالاً لدوره العظيم في الإضاءة
والتعبئة وفي إشاعة الحلم والفرح.

أما صاحب هذه الأوراق فهو، في الحالين، لم يبرح
موقعه الثابت القائم، أساساً، على المستوى وعلى الموقف
والشجاعة. تراه يمتلك، بتواضع جَم، ثروة باذخة من

اللغة والثقافة، ويتمتع بقدرة فائقة على قيادة القولين معاً في الاتجاه الصائب المثمر: القول الجاذب الرصين والقول الضاحك الساخر. فهو، من هنا، يأخذ مكانه، بجدارة، بين سادة من برعوا في إنزال مقال الجدة والحزم في مقامه الصحيح والأصيل، وكذلك مقال الدُّعابة والفكاهة والسخرية. ولشد ما نفتقر، في يومنا الراهن المأزوم، إلى أسلوب في الكتابة، يضارع هذا الأسلوب، نتخفّف، في ظلّه، من عبء الأثقال التي تُنهك قوانا وتفسد علينا الحياة، ثم نتناول، من ثمرة، ما يشبع العافية والنضارة في عقولنا والقلوب.

لم يقع في عزمي، وليس في مقدوري، أن أرسّم، بالكلمات، لوحة بيانية تشتمل على جميع مصادر الضوء وعلى مختلف حقول الطّيب والندى في هذه الأوراق - الحداثق.

حسي، من هذا الأمر، ما تقدّمتُ به من سانح الإشارة لأجدني، الآن، ملحقاً بما قدّمتُ إضافتين عابرتين. يختصر الأولى منها، بلغته الأنيقة الطليّة، أحد علّي نفسه، إذ يحدّثنا، في واحدة من أوراقه عن ميل شخصي لديه نحو الاستطراد والتنقّل في ملاعب الكَلِم فيقول: «شرعتُ في هذا التمهيد على أمل أن يكون بضعة أسطر ثم أدلف بعدها إلى خواطري الطّيّارة، وإذا بالحديث يستفيض، وكما نقول فالكلام يجرّ الكلام».

أما الإضافة الثانية فبوسعي اختصارها بالإشارة إلى ذلك الهاجس العظيم الذي يسكن أحدَ ويأخذ عليه أقطاره جميعاً، فتعجب، من بعد، كيف يتأتى له أن يمتلك وسادة يستريح إليها ويخفي تحتها كل هذا

الجميل المضيء من « المقالات والاعترافات
والذكريات ».

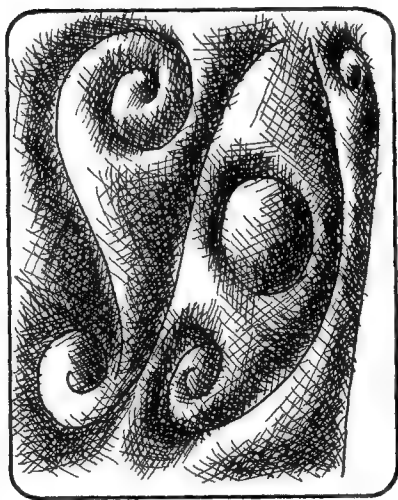
ما أيسر أن تستكشف هذا الماحس، وما أسهل أن
تُمسك بقياده، فهو ساطع هادر في جميع مخبآت
الوسادة. وهو ذو وجهين اثنين مختلفين في كائن واحد
متغير هو الوطن. فثمة وجه يمثل الجنوب فالشمس
والمستقبل، وثمة آخر يمثل الأطلال والدماء وعفونة
الماضي. إسمع إليه يصرخ، بصوت نازف: « ويا مجمع
الطوائف والقبائل متى تصير وطناً حقيقياً لا فولكلوراً
تهرججياً يقضي على الآمال والأعمار؟... » يصرخ،
نعم، ولكنه يتقدم جنوباً حيث المخاض العظيم للبشر
بولادة هذا الوطن الحقيقي لا محالة.

وبعد، فلست بقادر، مهما حاولت، على صياغة
ذلك العنوان المعبر، بدقة وشمول، عن مجمل
الانطباعات والمشاعر التي تحمّلت عندي أثناء السفر،
مرتين، في ظلال تلك الأوراق التي صارت إلى خضرة
دائمة وتألّق لا يخبو.

من هنا أراني مسوقاً باتجاه « الوسادة » الحاضنة
إياها أستنجد بها، في حيرتي، فتُنجدني، مأجورة،
بكلام، هو فصل الخطاب، منقول عن سيد البيان،
الجاحظ أبي عثمان، في وصف أليفه الكتاب: « فمتى
رأيت بستاناً يُحمل في رُدن، وروضة تُقلّ في حجر ».
ذلك هو العنوان الذي تطامنت إليه نفسي وسعيتُ
نحوه محاولاً، ولكنني تعثرت دونه خائباً، فجاءني أبو
عثمان، في عبّاءة « العلّبي »، فتداركني بجميل نعمته.
فجزاهما الله، معاً، منّي خيراً...

بيروت في ٢٠/١٠/١٩٨٦

صُراخ و همس



وطن اليباس

حتى شجرُ الأرز العتيق دهمه في وطننا اليباس، وقد هرع إليه الإخصائيون يقلّبون النظر في حشرات لاحظها الأهالي تنتشر في المنطقة وتبّت في أعضاء الأرز الموات وفي خلاياه «التخشّب». وهذه الأذرع الممتدة عند الأعالي لعشرات السنين دون كلال، وكأنها تدعو زوارها الى واحة الظلّ والندى والعبق التاريخي، يُخشى عليها أن تنخفض وتطوي أشرعتها وتطاطيء هاماتها، كمن يودّع إبداناً بالرحيل.

هذا الجبال الساجي على الدهر اندثرت غاباته التي ورد ذكرها في الأسفار، ولم يبقَ منه سوى باقة معدودة القامات كم لجأنا الى ظلالها في عهد الطلب وأيام السكينة نصغي فرحين مأخوذِينَ بصوت «فروز» الحقيقي، يوم كان لنا فرح ومهرجانات، تتردد أصدائه وتتفلت عبر أصابع الأرز الى الوديان الخاشعة والسماوات الزرق والغيوم العابرات.

لقد ولّى ذلك الزمن الذي كان يزدحم فيه لبنان بغابات الأرز والسرّو والسنديان والشربين والصنّدل تعبّق بالشّذا، حتى غدت كلمة لبنان مرادفة أحياناً لمعنى الغابة. وكان الأرز بين الأشجار ملكاً متوجّجاً، وعندما طلبت الشجرات، كما ورد في الكتاب المقدّس، من العوسجة أن تكون ملكة عليهنّ قالت العوسجة: «إنّ كنتنّ تمسحني ملكة عليكنّ فتعالين استطللين بظلي، وإلا فلتخرج نار من العوسجة وتحرّق أرز لبنان». ولكن «غرس الرب» بات حكاية من الماضي، ونحن نحيا زمن الأطلال.

لم يعد عندنا خشب الأرز نصدّره على صدر البحار، وفتيّون بأحواله يرفعونه عمداً لقصور وهاكل. لم يعد عندنا خشب الأرز يحمّزه

الصيّدونّيون ولا أمهر، ومنتطيه سفناً ماخرة وأساطيل فارهة. لم يعد عندنا ظلال وأنياء وروائح، فالذين تسلّطوا على هذا البلد، مذ صاح المذبايع ذات يوم بنفير الاستقلال، حوّلوه إلى مزرعة تدرّ حليباً لجيوبهم وإلى كهف يمحكون في ظلمته الصفقات. فعند الوطن صفقة كبرى، ولم يبقَ له رائحة وأريج. وصار ما ورد في «نشيد الأناشيد» ترنيمة وحنيناً، وفي أيدي لصوص هيكل هذا الوطن ابتزازاً ومتاجرة: «شفتاك تقطران شهداً أيتها العروس، وتحت لسانك عسل ولبن، ورائحة ثيابك كرائحة لبنان»!

لقد أغويت أيها الأرز أعلام التاريخ: سليمان فنتته، وقورّش سحرته، وسنحريب جذبته. فكنت في الزمن القديم جبلاً زاهراً أسراً، وهكذا كان حرّمون والكّرمل. لكن الفتور أدركك، وأخشى على بقايا أفنانك وقاماتك أن يغالبها الإغياء. البعثة العلمية التي عاينتك تقول إن اليباس الذي يدهمك مرّة إلى فراشات ليلية تضع بيضها على أوراقك، وإذا بهذا البيض يتحول إلى يرقات تلتهم البراعم والأوراق، فيكون اليباس، إذ ليس أشدّ خطراً من بعض أنواع الحشرات في طور الولادة هذا.

الفراشات الليلية تعبت بك يا وطني لأن الذين أمسكوا بزمام سفينتك منذ فجر تشرين ٤٣ قادوها إلى التعصب والفُرقة والتقسيم الخفيّ، فبنوا دولة أساسها الرمال والهوان والديدان وأركانها الخور والعبث والبُهتان!

وعلى طاولتي التي أحتر فوقها همومي صحن صغير من خشب الأرز بلون السديان، تتوسطه مشحة بنية اللون تتخللها دائرتان لوليتان. وكلما استبد بي التعب وتطلعت نفسي بشرة إلى سيكارة لا سبيل إلى تنفيخها، مذ أقلعت عن التدخين مجبراً لا بطلاً، فقد ولّى عهدا، أقصد البطولة لا السيكارة. أقول كلما سرحت في الأمانى والتهويمات أجديني ألتقط بين أصابعي هذا الصحن الخشبي الصغير، مقلّباً إياه ومُدنياً صفحته من أنفي، أسحب أنفاساً عميقة، فتخترق صدري رائحة معتقة هي شميم

غابة الأرز المقدسة. وكان من دأب زوجتي، سامحها الله، أن تطفيء
أحياناً عقب سيكارتها في وسط هذا الصحن الخشي الذي أعد أصلاً
ليوضع فوقه قدح ماء أو شراب وليس ليلعب دور المنفضة. ولهذا فإن
تكرار غسل هذا الأثر الوافد من غابة الأرز بالماء، بغية تنظيفه من آثار
أعقاب السكائر، أحدث فيه شقوفاً وعلت مشحته البنية ندوباً مسودة.
ولكنه ظل، شأن المسك، تفوح منه الرائحة وتتغلغل كلما أدنيت من
روحك. وتغسأ لصانع هذا الصحن فقد ختم على قفاه بالأجنبية عبارة:
أرز لبنان، فكان في صنيعه كمن يسجل على الحائط: هذا حائط! إذ هل
يخفى خشب الأرز؟ وهل رائحته شأن رائحة الشوح مثلاً، إذا كان لهذا
الأخير من قوَح، أم هي حكاية المستطعم والشام؟

إثر النكسة وقف المواطنون في مصر الغالية يشاهدون حريق الأوبرا
والدموع في مآقيهم. ولكن ربّان سفينتهم كان رجلاً لا كالرجال، بورك
البطن الذي أطلعه. ونحن قادت سفينة استقلالنا بورجوازية تجارية خسيّة
أكلت الوطن ولفظته عظاماً وبياساً. وأخشي ما أخشاه أن نقف ذات يوم
حالك بائس أمام غابة أرزنا في بُشري فزأها وقد استحالت إلى هشم
وأحزان!

(١٩٨١)

«أفوتك بعانيه»

ترققي أينها الأيام ، فقد طال بنا الأسى واستوطن . وإذا كان « پوشكين » قد قال إننا أوحينا نحن العرب للشعر في العالم نشوة الحب ونعومته . فإن زمن الحب ولّى عن ديارنا وهاجر ، بغير عودة قريبة منظورة أو مأمولة . نحن نعيش زمن الرعب والأجساد المتطيرة والعيون المطفأة وكاتم الصوت والروح . نحن نحيا زمن الأصابع ، ليست هي الأصابع الخانية والمداعة ، ليست هي أصابع الرأفة والنور ، إنها الديناميت ! أيّ حقد يمحّر بحيرة أيامنا ، أيّ قلبية ولا أفضح ! تُرى ألم نتجاوز عصر الجاهلية الجهلاء أم أنها الرّدة الثانية ؟ فأين الصديق ، وماذا يفعل عمر ، وكيف يسكت عليّ ؟

بات الضحك تهمة أو غَوَاية . لم يعد فيض النفس الوطني ، أو رائحة الأرض المحروثة ، أو ركض الحبيب الى الحبيبة . صار الضحك صناعة وافتعلاً ، محاولة هروب وارتداد ، متراساً وهمياً في وجه الزمن . اللهم ارزقنا ضحكاً نقياً يعمر حقول العمر الزاوية ويرتدّ عافية ونضارة . فحياة من غير نعمة الضحك المعافى هي إطار من غير لوحة وامرأة بغير قلب ولا شَفّة . ولكن من أيّ كُوة يدلف الى حياتنا هذا الضحك ونحن نعلم الحاضر البائس وخفايا المستقبل المثقل باحتمالات التعاسة ومزادات الرئاسة ؟ إن في أذاننا وقَر ما قال النبي في بعض خُطبه : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ! » ونحن ، حاشا الادعاء والقرور ، نعلم الشيء الوافر عن بلوانا ، فكيف يواتينا بعدها ضحك من القلب دافق ؟

هي شهادة مغمّة عن حال الأمة ، والقارئ في حِلّ من الأخذ بها ، خصوصاً إذا عرف أن الذي يدلي بها يمتنّ التعليم ، أي أنها في نظر بعض

القدامى من «النبه» غير مجازة إلا على مضمّن! فلقد جاء في كتاب
«المحاسن والمساوى» للبيهقي الرواية التالية: «قال: شهد رجل عند
سوار القاضي فقال: ما صناعتك؟ قال: معلّم. قال: فإننا لا نجز
شهادتك. قال: ولم؟ قال: لأنك تأخذ على التعلم أجراً. قال: وأنت
تأخذ على القضاء بين المسلمين أجراً. قال: أكرهت عليه. قال: فهَبْكَ
أكرهت على القضاء فمن أكرهك على أخذك الأجر والرّزق على الله؟
فقال: همّ شهادتك، فأجازها!»

فلعل بعض المطالعين لهذه المقالة يميل عنها شاجباً ما فيها من سلبية
وعبوس، ولعل البعض الآخر يجد فيها تفرّجاً عما يعانيه من كَرْب
وضيق. وأنا بعد هذا لم أكتب لأرضي وأسيء، ولا لأفرح وأحزن، إنما
لأبوح بما يضحّ في صدري وما يحول في خاطري. وليس على المطالع حرج
إذا نعت هواجسي بالاضطراب وآرائني بالاعوجاج والضعف، فإن لسان
حالي يردد ما قال أبو العلاء المعري ذات مرة:

خُذِي رَأْيِي وَحِسْبِكَ ذَاكَ مَنِّي عَلَى مَا فِيَّ مِنْ عِوَجٍ وَأَمْتٍ.

ورُبّ نَزَقٍ يعود نَسَبه إلى قيس عِيلان يبادر إلى القول: وكيف هذا
وحال الأمة لا يسمح بالهذيان أو التردد أو الرأي اليائس؟ صحيح
فالديمقراطية لم تصبح بعدُ مُناخاً سائداً في مسلكتنا الحياتي وتعاطينا
الفكري. أنت من رأيي، إذاً فنحن حليفان وأخوان. أنت تخالفني
الرأي، إذاً فالخصام ما بيننا ويا لثارات عبس! الديمقراطية خبز لم يخرج
بعدُ من أفران أحزابنا، ومُتَبَتَاتُ الحُزْبِزِين يعملون. إذ لو لم يكن هناك
بصيص أمل لاتفتت الكتابة، ولتكَسَّرت الأقلام، ولأدار الناس ظهورهم
بشكل نهائي يلتسمون في بيوتهم كهفاً يأوون إليه.

وها هو عام جديد يُطلّ علينا شتاء أم أرباب، فنهر الحياة جارٍ بلا
هودة، وهو لا يطلب منا رأياً أو إذناً. إنه لا يتعاطى لعبة الديمقراطية،
ولا يستغنيا في إقباله ولا إدباره، وإنما يفرض نفسه فرضاً. هو الزمن
يُجْلِي جَبْرَهُ، ولا اختيار لنا فيه، ويحملنا في خضمّه الزاخر نقطع فصولاً

أربعة، ونزداد قلقاً بفعل دبيب السنين في أجسادنا. فتتحسس شعرنا على مساحات البياض لم تنتشر، هذا إذا كان ما يزال سالماً فوق رأسنا لم يهر أو يخف! وننفخ جسمنا نبحت عن رشاقة في طريق الضياع، ونفاجأ أن هذا الوعاء الذي كان جيلاً ربما، بدأ السّمن يدهمه بعد هُزال، هو للأسف سَمَن الأعوام الراكضة فوقنا وبنا! ههنا نحن اللاعبون والمتفرجون معاً، والكرة هي هذه الحياة التي نعدو متعللين بـ «شوطها»، فإذا بها «تشوطنا» من حيث ندرى ولا ندرى. وحذّر أن يرتكب أحدنا غلطة الـ «هانس»، فقد يغدو أثراً بعد عين!

ماذا عسى هذا القلم المرتبك أن يأمل والناس يخرجون من هموم عام جرى ليدخلوا في ثياب عام جديد؟ هو يأمل ويتمنى لأنه مهما تكاثفت الظلمات في حياة الأفراد والجماعات فسيظل نور نجمة بعيدة يغمز لنا: إياكم واليأس، فأنا آتٍ ولو طال المدى! وقد يعيش الناس على أمل سراب أو أمل واهم، لكنهم، لحرصهم على الاستمرار والدعمومة والتشبث بالبقاء، يعيشون أملهم من الشراية الى ما يخالونه الحقيقة. هو سحر الوجود يتلاعب بهم أو يتلاعبون به، والهدف واحد: انتصار الحياة.

ولو كنتُ من الذين ينتشون بالكلمات الكبيرة والشعارات الطنانة لمعدت الأمنيات يافطات مزدانة بتعابير الخليج والمحيط، ولحشوتها بمجموعة من اللاءات! لكن المثقف لا يملك سوى التمني والتعلل، ويأتي من ييده الحل والربط ويقول له متجافياً: هذا أوان «نعم» كما تقتضي المصلحة والظروف، فكيف تقول «لا»، ومن سمح لك وأعطاك مهمة التقرير عن المجموع، فنحن الأمة؟ وتلفت متسائلاً كما تسأل عمر فاخوري بظرفه ذات يوم، وقد خرج مع وفد جمعية مكافحة الفاشستية من مقابلة أحد المسؤولين الكبار الذي أمطر أعضاء الوفد بعبارات التقدمية وزايد عليهم بكل ما يحفل قاموسهم من مصطلحات: «هو نحن، نحن مين»؟

الأمنيات المتواضعة الصغار أليق بحالنا وأعطف وأحنّ، فلماذا نندب

أنفسنا لجلال الأُمُور وتَبَعَاتِ التَّحْرِيرِ والتَّوْحِيدِ وما شابه . إنَّ لهذه أرباباً
يَتَقَنُونَهَا وَيَمْتَهِنُونَهَا ، أَمَّا الْكَاتِبُ فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ إِنْ بَثَّ الرَّجَاءَ وَنَشَرَ
الرَّايَاتِ ، وَذَلِكَ ضَمَّنَ السِّيَاقِ ، وَمَعَ مِرَاعَاةِ الظُّرُوفِ ، وَالْأَخْذِ بِالْحُسْبَانِ ،
إِذْ لَا بَدَّ ، وَيَنْبَغِي ، وَقَدْ يَتَوَجَّبُ ... !

كنت أُوثر ، عَزِيزِي الْقَارِيءُ ، لَوْ أَنِّي فَرَشْتُ لَكَ فِي هَذِهِ الزَّائِيَةِ حَيْثُ
تَتَرَاكُمُ الْأَصْدَافُ ، بِأَقَاتِ مِنَ الْوَرْدِ وَالرِّيَّاحِينَ أَهْلَ بِهَا عَلَيْكَ وَنَحْنُ عَلَى
عَتَبَةِ سَنَةِ يَقُولُ الْكَثِيرُونَ مِنَ الْعَارِفِينَ أَنَّهَا حَبْلِي بِالْمُفَاجِئَاتِ . إِذْ الْكَلِمَاتُ ،
وَنَحْنُ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، ذَبَلَتْ وَلَمْ تَعُدْ تُغْنِي عَنِ خَوْفٍ أَوْ تَنْوِبٍ عَنِ
خَفَقَانٍ . وَلَوْ أَنِّي أَمْلَكْتُ مُوهِبَةَ الرَّسْمِ لِلْأَتَمِّهَا بِالنَّمْنَمَاتِ وَالْأَهَاتِ وَالْبَسِمَاتِ ،
عَلَّكَ تَنْسَى ، وَلَوْ لَهْنِيهِةً عَابِرَةً ، وَظُلَّةً الْأَحْدَاثِ وَكَابُوسَ الْقَدْرِ الَّذِي
اخْتَارَنَا أَحَدَ مِيَادِينِ لَعِبَتِهِ غَيْرِ الْبَرِيَّةِ .

وبعد ، مَنْ يَدْرِي ، فَلَعَلَّ الْعَامَ الْجَدِيدَ يَهْمِسُ لَكَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ الَّتِي
تَدْنَحُ رُقْرُقَةً فِي لُجَّةِ اللُّغَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْمُحْكِيَّةِ الْأَمْرَةِ : « أَفُوتُكَ بِعَافِيهِ » !

(١٩٨٢)

عناق الأبيض والأسود

نقلت إلينا الأخبار أنه حُكِمَ على رجل أبيض وامرأة سوداء في أفريقيا الجنوبية، وذلك لأنها أقاما علاقة حميمة في ما بينهما، فانتهكا بذلك قانون «الفجور» أو «اللاأخلاقية» المعمول به هناك والذي يحرم العلاقات الجنسية بين البيض والسود. تأمل الاحتيال اللاأخلاقي على الحقوق المدنية والفجور المرتكب بحق اللغة والمنطق والإنسان.

كما جاءتنا الأخبار بأن أرسالاً من المثقفين يهاكمون في تركيا، والذنب فاضح لا يُغتفر وفيه خروج على الأحكام العرفية المزمّنة: إنهم قدّموا التماساً يطلبون فيه المزيد من الديمقراطية!

وفي إيرلندا الشمالية، لستين خلتاً، كان أعضاء من الجيش الجمهوري السري يُضربون عن الطعام حتى الموت، احتجاجاً على معاملتهم على أنهم مجرمون عاديون وليسوا سجناء سياسيين. وهكذا بعد إضراب نيف على الستين يوماً، ورفض للتدخل الطبي، ومحاولة يائسة من النوار لتحريك الضمير الأنكلوسكسوني بغير طائل، مات بوبي ساندز النائب في البرلمان البريطاني، وفرنسيس هيوز، وريموند ماكريش الذي كان في الرابعة والعشرين من عمره، وباتريك أوهارا... وقافلة الحرية لا تعرف للسكون سيلاً.

وفي الجعّة وفي مجرى أيامنا أمثال لا تُحصى على هذا الصراع الذي لا ينتهي ولا هوادة فيه بين التائقين إلى التحرر والانعتاق والعاملين على التضييق والكبت وإزهاق الأرواح. إنه الخصام بين الأبيض والأسود، العداوة المستحكمة بين العدل والظلم، التضاد الأبدي بين النور والظلمة، إنه التنافر بين صباح الحرية وليل القهر، الجدل بين السجين والسجان،

والعراك المذهل بين الرثة التي لا ترضى بغير الهواء النقي طريقاً للحياة
الكريمة وهؤلاء الذين يعتاشون على نشر المظالم وإشاعة البعوض
والمستنقعات في صدور الناس وحلقهم!

ولكن ما بال هؤلاء الغنّة الظالمين يندسّون بعنصرتهم القبيحة في كل
الأمر والموم، فتطال حتى مضجع أبيض وسوداء. الألوان في الياسة
والمصالح والأهواء غير ما هي عليه في الحياة والأدب والعلاقات الإنسانية
ودنيا العشق وزفرات المحبين. هناك خصام واضطهاد وكراهية وأحقاد،
وهنا عناق الأبيض والأسود ووثام وكلام وهيام. ولكم تغنى الشعراء
العرب في حقل الأدب بالمرأة البيضاء تطلع عن نهار ناصع متألق وينسدل
فرعها ليلاً من الشعر المسترسل الفاحم الطويل. يقول شوقي: ودخلتُ في
ليلين قرعك والدجى. لكن المعنى نفسه غابر قد قلبه الشعراء كثيراً
وقديماً، وإن كان أمير الشعراء قد ترك في صياغته لمسة من موهبته. وفي
« نهاية الأرب » للتويري أن شاعراً عائق محبوبته ذات الشعر الغزير
المنسكب، فنشرته حولها تنقي به الحاسدين والغدال وأصحاب الملامة:
فكأنني وكأنها وكأنه صبحان باتا تحت ليل مطبق.
أنالك الله، أيها القارىء، عطلة منعمة تحت خيمة كهذه من الشعر

الحريري الناعم لا من وبر الجمال الشائك!

وقومنا العرب، ونحن أحفادهم في هذا المقام، لم نخالج نفوسهم
العنصرية في موضوع المرأة والجنس. والشعراء وفقهم الله ورعا، ما
ذكروا الزنجيات إلا مقرونة أوصافهن بالمسك والعتير، فسواد هذين
الصنفين وطبيهما مختلطان معجونا بسواد الزنجيات وطبيهن. وبلغ الغرام
بأحد الشعراء - سأل الله وهده - أنه في حبه لإحدى السوداوات، كما
جاء في « عيون الأخبار » لابن قتيبة، ذهب إلى القول:

أحبّ لحيها السوداء حتى أحبّ لحيها سود الكلاب!
وما دامت سوق الزنجيات رائجة في ذاك الزمن البعيد، وإقبال
أجدادنا عليهنّ نشيط، فلماذا لا تأخذ بهنّ العناية ويعمدن إلى التأنق

والتفنن في إغراء هذا المسكين الذي يدّعي القوة والجبروت والذي اسمه في دائرة النفوس وفي أرشيف التاريخ آدم ؟! وبلغت الغيرة من البيضاوات والسمراوات مداها الظريف فإذا بالسوداوات يكتحلن ! ولا يعجب أحد فأفانين الحضارة نطالع طرائفها في كل حين عبرَ عالمنا المتخلف، المتسول لآخر المكتشفات يرتشف لذائذها وهو مضطجع ناعس الطُرف سكران. وإذا كنت بحاجة إلى دليل قاطع مانع فتأمل هذا الأخ اليامي في جهة الشمال محروماً من الكهرباء والعلم والوعي، محصّناً بالقلبية والجهل والفقر، وانظر إليه بفضل المساعدات « الشقيقة » يدير مفتاح الفيديو ربما برجله عَوَضَ يده، لي شاهد في أقصى الصحارى آخر أفلام « السكس »! ودمتم بخير.

(١٩٨٤)

دعاء رمضان

اللَّهُمَّ إِنِّي صَائِمٌ عَنْ الْغُرُورِ وَالِاسْتِعْرَاضِ وَالتَّنَفُّسِ وَالِادِّعَاءِ وَالْحِرْصِ عَلَى الْجُلُوسِ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَهِيَ آفَاتُ تَرْكِبِ الْكَثِيرِ مِنْ مُتَقِينِنَا أَوْ يَرْكَبُونَهَا مَطِيَّةً إِلَى الْبُرُوزِ الزَّائِفِ وَالِابْتِسَامِ الْمَصْطَنَعِ وَالثُّهْرَةِ الزَّائِلَةِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ أَخْلَصُوا الصَّنِيعَ لِأَدْرَكُوا أَنَّ الْعِلْمَ صِنُو التَّوَاضُعِ الْجَمِّ وَالطَّيْبَةِ وَعَشِيرِ الْجَهْدِ الصَّامِتِ وَالْمَعْرِفَةِ الرَّاسِخَةِ. وَكَمْ فِي بَلَدِنَا مِنَ الَّذِينَ حَلَمُوا اسْمَ الثَّقَافَةِ جَلِيَّةً كَرِيمَةً بِرَاقَةً وَلَمْ يَحْمِلُوهَا صَلِيبَ مَعَانَاةٍ وَأَرْقٍ وَإِبْدَاعٍ. إِنَّهُمْ يَنَامُونَ عَلَى وَسَادَةٍ مَحْشُوءَةٍ بِالْخَفَةِ وَتُنْفَقَ عِلْمُ، وَتُخَالَمُ مُتَقِينٌ وَهُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ لَا يَقْرَأُونَ، وَتُحْسِيهِمْ يُعْمَلُونَ الْفِكْرَ وَهُمْ سَادِرُونَ فِي الْمَنَاصِبِ وَالتَّجَارَاتِ وَعَلَى الْبَارَاتِ (الْمُقَفَّلَةِ مُؤَقَّتًا) يَقُومُونَ بِالْغَارَاتِ!

اللَّهُمَّ إِنِّي صَائِمٌ عَنِ الْكَذِبِ وَالدَّجْلِ وَالرِّيَاءِ وَمَسْحِ الْجُورِخِ ابْتِفَاءً مَرْضَاةً بَعْضُ ذَوِي الرُّتَبِ، وَتَقَرُّبًا مِنْهُمْ وَلَفًّا وَدَوْرَانًا حَوْلَهُمْ، عَلَى الْحَرَكَةِ تَكُونُ فِيهَا الْبَرَكَةُ وَيَفُوزُ النَّاشِطُ بِمَا لَهُ خَطُّطٌ وَمَنْ أَجَلُهُ دَارٌ وَلَفٌّ وَنَطْلُطٌ. لَقَدْ كُنْتُ دَائِمًا بِالْمَرَاتِبِ زَاهِدًا، وَسَأْظِلُّ أَبْتَعِدُ عَنْهَا إِذَا قَرُبْتُ مِنْي وَأَنْفِرُ مِنْهَا إِذَا مَا رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِهَا. وَكَيْفَ أَبَالِي بِهَذِهِ التَّرَهَاتِ وَالْأَصَالِيلِ وَالْحَوَازِيقِ وَأَنَا أَمْلِكُ قَلَمًا أَسْتَظِلُّ بِمَلَكُوتِهِ وَأَسْتَشْعِرُ عِنْدَمَا أُرْكِنُ إِلَيْهِ سَكِينَةً وَمَسْرَةً وَحُبُورًا وَغُبُطَةً وَرَاحَةً ضَمِيرٍ وَمَا لَا أَدْرِي مِنَ الْأَحَاسِيسِ الَّتِي تَبْدُو حَيَالُهَا الْمَنَاصِبِ وَالْأُمُودِ مَتَاعًا سَاقِطًا وَبَاطِلًا الْأَبَاطِيلِ.

اللَّهُمَّ وَحْدَ الْوَطَنِيِّينَ وَالتَّقَدِّمِيِّينَ فِي جِهَةِ مِتْرَاصَةِ بَحِيثٍ إِذَا شَكَأ أَحَدُهُمُ الْقَسِيمَ تَدَاعَى لَهُ الْآخَرُونَ بِالْعَوْنِ، وَإِذَا فَتَرَتْ هِمَّةُ غَضُو تَنَادَى لَهُ سَائِرُ الْجِسْمِ بِالْمُسَانَدَةِ مِمَّا كَانَ الْبَيُّونُ. فَالْوَطَنُ وَالْمَصِيرُ وَضَحِيكَ الْأَطْفَالُ وَهَدُوءُ الْعَجَائِزِ وَحَلِيبُ الْأُمَهَاتِ وَنَشِيدُ الْحَقُولِ، الْمَاضِي الْمَعْتَقُ

والحاضر الواعد والمستقبل الزاهي، خرب الزيت في المعاصر، وتكتكة
العصافير في أعلى الصنوبر، والعنب في كرومنا بلون الشَّهْد لم يُعَصِّرْ؛
كلها قِيم وخيرات وبشر وأفكار يتهددها الفناء وصغير الخماسين والخراب
الناعق ودُخان يعسّس وجمريومض ولا خلاص من الكارثة المحدقة إلا
بجبهة عريضة تضم الشرفاء من كافة الآراء والفئات والمشارب والأهواء،
ولكنهم جيعاً روافد لنهر الوطن العظيم الهادر الذي نغتسل به فنشفي
ونتنصّر الخدود بالعافية والعيون بالتاعة العشق.

اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا حُبّاً ومودّة ولا تبذر في صدورنا غِلاً وموجدة. واعمّر
قلوبنا بالإخلاص في العمل والصدق في الهدف والصفاء في التعاطي
والثبُل في الغايات، ولا تجعلها قلوباً مترعة بالحقد والضغينة والدناءة
والصغار تحرك أصحابها سفاسف الأمور وتستنهضهم التي واللّتيّ، في
حين يقفون أمام جلائل الأحداث مكتفي الأذرع مثلولي الإرادة
عاجزين مسلوبين. إن حياة لا يملأها إيمان بالإنسان ومجده وقدراته
واجترأحه ما عزّ وصعّب لمي حياة نباتية يدفع من يجيهاها الأيام بالأيام
ويسوق العمر خوآء وضياًعاً، إذ ما معنى أن نكون من غير أن نحقق
معنى كينونتنا وجوهر وجودنا. والمعنى قائم في الإيمان والعمل، والجوهر
يتبلور في العطاء بلا حدود شأن الرهبان المتبتلين والنسّاك المتعبدین.

اللَّهُمَّ أَرْحْنَا في هذا الشهر الفضيل وما تلاه من زعيق الرصاص
وهدير المدافع، ومن هذه القذائف السامة الطائرة في الفضاء الى هنا
وهناك والتي تحمل لأبناء شعبنا الدمار والأذى والشقاء والهوان. فحتى
متى تستمر هذه الحرب الأهلية وتفتك بأعصاب أهلنا بحيث إن الناس في
بلادهم سيفدون، إذا ما بقي الحال هو الحال ولم يستمع المتعنّتون الى نداء
العقل و «مانيفستو» العدالة، مجموعة ضخمة من المعاقين جسدياً وعقلياً
يَحْيُون في بيارستان كبير جداً تبلغ مساحته عشرة آلاف كيلومتر مربع
ونيف! لقد قال لي طبيب نفساني مرموق ذات يوم من عام ١٩٧٥، وأنا
أسأله في ما إذا كان يستقبل حالات كثيرة من الاضطراب العصبي وهل
من سبيل إلى معالجتها: «إسمع يا صاحبي، إن الأدوية تتكفل بالمداواة

وتقوم بالمهمة ، ونحن ننجح في جُلّ الحالات لأنها عابرة ناشئة عن الأوضاع الصعبة . ثم أردف بعد هنيهة صمت : « القضية ليست في هذه الحالات الطارئة وإنما في الناس الذين يتأسكون تمثيلاً مع المسؤوليات العائلية والاجتماعية الملقاة على عواتقهم ، حتى اذا ما عمّ السلام وساد الهدوء فإن الكثيرين من هؤلاء يتهافون عندها من الإغواء الذي اختزنوه . ولكن كم من وحل ومياه ومأس تدفقت تحت الجسر منذ مطلع هذه الحرب العبيثة الضروس الشنعاء ؟ فلأعصاب علمياً حد يقف عنده التحمل ، ويبدو أن هذه الذكرى العاشرة في حربنا الجنونية هي سنة القشة التي قصمت ظهر البعير وأتلفت أعصاب المواطنين الصابرين ، بدليل هذه الكميات المدهشة من الحبوب المهدّدة والمنومة والمسكنة ، وربما سنحتاج في يوم قادم إلى المفرحة والمرقصة والمفرجة عن الكرب ، التي يروج استعمالها وكأنها تنوب في التناول عن القضايمي الصفراء أو المغلفة بالسكر والتي كنا نطرب لها ونحن صغار ، والدنيا هي غير الدنيا ، ورمضان غير رمضان الحالي الذي يعود إلينا بطلل وزمر وأوركسترا حربية . ونحن ، يا ناس ، نحن إلى الموالد والمدائح النبوية « مَدَدْ يا رسول الله مَدَدْ » ، وإلى أن نسرح في الطرقات حتى أوان السحور . هل تعود تلك الليالي ؟ بلى ستعود ما دام في شعبنا إيمان بالتراب ومقاومة بأسلة وأسراب بطولات وشهداء يضيؤون الشمس ويشقون للمستقبل درباً مزهراً .

(١٩٨٤)

الفراشات تغطي لبنان

في زمن التعمسة والإجباط والأماشي المشوقة على بوابة تاريخ نضيبه كل يوم بفريقنا، ولأسباب شتى موضوعية وذاتية وبُنيوية، يغدو الحلم أكثر من ضرورة. ولقد أغمضت جفني منذ أيام، والليلة لم تكن قذائفية، على حلم تصوريته في خيالي، وهو أن لبنان الوطن قد غطته الفراشات بألوانها الزاهية التي تحير الإنسان.

وقد أتيح لي بعض المرات أن أشاهد مجموعات من الفراشات لبعض الهواة، فتأكدت عندها أن فنانينا يحتاجون الى دروس وعبر، لأن ألوان لوحاتهم تبدو باهتة ورتيبة بالقياس إلى الألوان التي طالعنتي على أجنحة الفراشات ذات الحُجُوم المتباينة. الصحيح أنها أدهشتني، لأني لم أكن أحسب أن الطبيعة تحتزن هذا المقدار العجيب من الألوان، وبعضها لا ألفة لعيوننا به البتة. إن الحياة والطبيعة وأحوال البشر منجم من الطاقة التي لا خوف من نفادها ذات يوم. « نطف » الكتاب والفنانين لا يحتاج إلى « أوبك » ترعاه، فهم القيمون عليه ولا وصاية للمشايخ والحكام والأتباع والحشم. نطف المبدعين للمبدعين هذه المرة. أما نطف العرب فلخزائن غير العرب غالباً، والله المدبر!

والحلم الذي عام في خيالي ليست الهَيُول مادته، فقد حلت في الأسبوع الماضي على بلدة « بضمون »، الملاصقة لسير الضنية من شمال لبنان، أسراب هائلة من الفراش الربيعي الملون قُذِّرت بالملايين، وحطت منذ الصباح الباكر على بيوت البلدة وحدائقها. ولم يخشَ الناس منها، فهي فراشات محبة وليست جرأداً ملتهاً قاصداً! مع العلم أن بعض أصحاب الشهية في الجزيرة العربية يشوون الجراد يأكلونه، وفي مكة يطوف الباعة

في مواسمه صائحين: يا جراد يا مشوي!

وكما الإنسان يفتح نافذته ذات صباح شتوي فيفاجأ بالجبال تكسوها الثلوج لأول مرة، هكذا فلتتصور الفراشات ذات الألف لون ولون تغطي مساحة لبنان! إنها تحطّ فوق قمحةٍ بندقيةٍ لمقاتل متحفّز. وتواب فوق متاريس متجهمة تقطع أوصل الوطن وأوردته. وتقف حثري فوق خرائب بيروت الحزينة - آه يا مدينتي، تحطمت أسواقك القديمة ودُفنت في قلوبنا ذكريات عزيزة! وتسترخي الفراشات الفرحة منتشية على نهد ممتلئ لامرأة بيضاء مغناج مستلقية. وتغفو فوق جفون طفل نائم، وعلى كتفيه ملاكان. وتتمطى على صفحة كتاب يتحدث عن ثورة كوبا، ذي غلاف جذاب يحمل صورة لكاسترو بذقنه العنبل الكثة، وقد وقفت عليها فراشة أنيسة...

فراشات بملالين الملايين تطالعك أتى حوكت بصرك، فتحجب بالتالي الرؤية على مطلقي المدفعية وصيادي البشر وتشلّ إرادتهم عن العمل! ولقد يفكر بعض تجار لبنان «الخرايق»، وما أكثرهم، باهتبال الفرصة السانحة، فيخططون بسرعة وببديهة تجارية متأصلة، في اصطياد هذه الفراشات والقيام بتصديرها وخصوصاً أن بعضها من النوع النادر!

وهذا الحلم يجرّنا إلى الحديث عن الفراشات، والكلام الآن في يقظة تامة، ومِداد العِلم لا الحلم. ففي لبنان ١٤٣ نوعاً من الفراشات. بعضها يتناسل ههنا، فهو وطني حامل للهوية. والبعض الآخر وافد، فهو من جنسية قيد الدرس، يهاجر إلينا من أقطار هذا الأبيض المالح المتوسط بين القارات. ولو أن موضحة لبس النظارات شائعة في عالم الفراشات لاحتاجت جميعها إليها، لأن في رأس الفراشة زوجاً من العيون، لكن نظرهما لا يمتد بعيداً، ومن المعتقد أن الفراشة تستطيع رؤية الألوان!

والتركيب البيولوجي للفراشة هو غير المؤلف لدى الإنسان والحيوان. فهي من غير رثتين، ويتم التنفس عندها بواسطة أنابيب دقيقة. كما أنهما من غير شرايين، فيطفو الدم في أنحاء جسمها، لذا فإن أي جرح تصاب به الفراشة يؤدي بها.

كنت أحب أن أترسل في الكلام عليها، ولكن الحلم عاودني، حلم
ذات ربيع من الخول السابع لحرب الأهل، ففطت الفراشات قلمي
وأوراقني، ربما هي بادرة فراشة احتفاء منها بعيد ميلادي عند الفاتح من
خزيران!

(١٩٨١)

إليها ولكن بحنان

يُروى أنه في أحد البلدان الذي بلاه الله أو بلا نفسه بالتخلف وقع التأميم على بعض المصانع، فوفد عليه مدير جديد ربما هو معلم ابتدائي سابق أو عسكري متقاعد. وأراد المدير أن يعيد تنظيم الأمور فسأل عن خبير، وكان إنكليزياً، عما يفعله في المصنع، فأجابه عوضين أو محددين أو عثان أو سعدون أو جبار أنه لا يفعل سوى أن يضع يده على الآلة كل صباح ثم يصفر، وبعدها بقليل ينصرف متمهلاً وهو يعبّ بتؤدة غليونه الذي تفوح منه رائحة جذابة أخاذة. فوضع المدير هذا الخبر على لائحة الصرف، وخصوصاً أنه كان يتقاضى مرتباً يبلغ المائتي جنيه. ومرت أيام قليلة، وإذا ياحدى الآلات تتوقف عن العمل. فهرع المدير وسأل العامل الذي أخبره سابقاً بصنيع الخبير أن يعتمد الى تشغيلها، فأقدم العامل على ملامسة الآلة ثم صفرَ، وفَقَّ ما كان يفعل صاحب الغليون المقال من عمله، ولكنها لم تحرك ساكناً! واستدار المدير يلتمس النجدة من الخبير الأجنبي، طالباً اليه العودة إلى متابعة العمل، فوافق على أن يتقاضى الآن معاشاً مقداره مائتان وخمسون جنيهاً!

ومن هذا القبيل ما حكاه لي صديق أمضى شطراً من عمره في العراق الشقيق. وذلك أن أنابيب نقل البترول قد تعطلت في كركوك، أيام كانت الشركة في أيدي الأجانب من إنكليز وفرنسيين وأميركان. وسعى المهندسون في الشركة إلى إصلاح هذا التوقف في تدفق البترول الخام خلال الأنابيب من غير أن يفلحوا، علماً بأنه يترتب على هذا التوقف القسري خسائر مالية فادحة. وكان هناك عامل في الشركة يرقب الموقف فتقدم من الرئيس وسأله إذا كان يسمح له أن يصلح ما تعطل؟ فما كان

من رئيس الشركة البريطاني المتكبر المضطرب الأعصاب إلا أن استصغر أمره. فسفه وطرده. وعندما أعت الحيلة بالمهندسين الأجانب تذكر الرئيس أمر هذا العامل ودعا بطلبه. فحضر، لكنه قبل أن يباشر الشغل اشترط الحصول على مائة دينار مكافأة لعمله. فنزل الرئيس طبعاً عند مشيئته مكرهاً ملهوفاً. فأمسك العامل بمطرقة وانهال بها على الأنابيب بضربة هنا وضربة هناك، فإذا البترول يتدفق من جديد بفزارة. وعندما مدّ يده لقبض الثمن سأل المدير العامل إن لم يكن قد بالغ بمقدار المكافأة، إذ الأمر لم يتعدّ ضربتين بالمطرقة، فهل ثمنها مائة دينار ؟ فقال له العامل: ثمن الضربتين نصف دينار، والباقي هو للعقل الذي يعرف أين يضر بها وكيف!

مُلامسة الخبير للآلة شأن ملامسة العاشق لجسد محبوبته، تختصر تاريخاً وخبرة وهياماً. وضربُ العامل الأنابيب ليس تهشماً لها، وإنما هو أشبه بالطبيب الذي يمسّ جسم مريضه بحثاً عن علته. إن مَنْ يُغرم بالعمل اليدوي تراه يؤديه وكأن هناك جاذبية أو تعارفاً سابقاً بينه وبين الآلة، صُنّرت أم كبرت، التي يتعاطى وإياها. إنه يفكّكها بثقة ويعيد تركيبها، بعد اكتشاف ما دهمها من عطل، بانسراح ونشوة وشغف. ليس عبثاً أنه في لغتنا نقول: رجل صنّاع، أي حاذق الصنعة ماهر اليدين. وما أقدمتُ مرة على عمل يدوي بسيط إلا وحسيت وصدق مني الظنّ أنّي سأضيف الى ما يحتاج الى التصليح خللاً جديداً! في حين عندما أمسك القلم وبين يديّ ورق أبيض مستطيل أنيس يخالطني شعور أنّي أجري الآن في حلّتي، ولا خوف على الوقت مهما طال، ولا خشيّة على خطأ أو تقصير أقع فيها، فأنا كفيل بها مع الصبر والأناة بالشطب مرة ومرة وبإعادة تركيب الجملة وتقوم العبارة، حتى ولو استحالَت الصفحة حقلاً مقلوباً من أقصاه الى أقصاه! وكَم هو شائق دراسة مسوّدات الكتّاب للاطلاع على طريقتهم في التحجير، فليست هذه عمليات تشويه وتمثيل وحرث عشوائي وإنما هي عمليات خلق وتجميل ومعاناة.

إن الأمر ليس وقفاً على مجرد التعلّم والإتقان، فهو الى ذلك يحتاج إلى

البراعة وإلى هذا الشيء الخبيء في حنايا هذا الشخص أو ذاك، وهو ما نسميه الموهبة أو الرغبة أو الميل. كثر هم الذين يتعلمون العزف على الآلات الموسيقية، ولكن قلة منهم هي التي تتعامل مع هذه الآلات الصماء بجنان وتواصل وانجذاب. والحنائن يُنطقون الآلة عن خباياها وإمكاناتها والأسرار، شأن ما فعلته العازفة الألمانية على البيانو «إريكا فريزر» هذا الأسبوع خلال الحفلة التي قدّمتها في معهد «غوته». فشكراً لأناملها العاشقة.

إن الموهبة تبدى في كل ميدان بلا استثناء، عقلياً كان أم يدوياً، ويدخل المطبخ طبعاً في هذا النطاق، وهل هناك حضارة لم تلج هذه الرّذّة العزيزة على بطون البشر؟ لقد تعلّم أحدهم على صديقه تحضير وجبة طعام بعد أن ذاقها لديه واستلذّ طعمها، فتأقت نفسه أو معدته إلى طبخها بيده. وأي صعوبة في ذلك وهو قد سجلّ المقادير ودقّق في كيفية التحضير؟ لكنه ما أن فعل حتى خاب أمله، فعاد إلى صديقه عانِباً مستفسراً متعجباً! فقال له: يا صاحبي كل ما فعلته صحيح ومضبوط، لكنك نسيت شيئاً واحداً أفسد عليك طبختك. فأسرع المتعلم يسأل بشوق: وما هو؟ فقال له الصديق وهو يتسم من جانب فمه: النَّفس!

وتحضّرني في هذا الصدد قصّة للكاتب الأرمني أقديك إسحاقيان (١٨٧٥ - ١٩٥٧) تدور حول فخّاريّ كان يشتغل عنده عامل في صنع الفخّار. وبعد مضيّ زمن رغب هذا العامل أن يستقلّ عن معلمه، ففأخّبه بالأمر وقال له إنه سيفتتح «فاخورت» بعيداً عنه مسيرة ثلاثة أيام، لثلا يكون سبب ضرر أو منافسة لمن له الأيادي البيضاء في إتقانه المهنة. فرحب المعلم بالأمر ودعا له بالتوفيق. وعقب ستة أشهر عاد هذا العامل إلى معلمه يشكو له ضيق الحال، ويستفسر منه عن عيلة كساد عمله وبوار كدّه، وهو الذي يتقن مهنته وفقّ ما كسب من خبرة لديه. فأعطاه المعلم طيناً وماء ودعاه إلى الشغل، فاغمرط العامل في السعي، ثم حل الخليط الطيني إلى آلة ليسوي منه جرة أو إبريقاً، ووضع ما صنعه في الشمس، وأخيراً حمله إلى الفرن. وسأل العامل إذا كان أخطأ في مسعاه، وهل من

أمر ناقص أغفله ؟ فأجاب معلمه : هناك شيء يسير أقوم به عادة ولم تأتِ
عليه ، وهو أنني قبل أن أدخل صنيعي طيّّ الغرن أنفخ فيه بغمي !
الملاسة ، الحنان ، النَّفس ، النَّفخ ، كلمات تُفضي الى حقيقة ذاتية
خطيرة لولاها لكان الناس يحملون فوق أكتافهم رؤوساً متشابهة تماثل
الثوب الأوحـد الشائع في الصين الشعبية !

(١٩٨٤)

الأمل والعمل

إننا نقول: لولا الأمل لحاب العمل. ولكن زيت الأمل يتناقص في قرارة أيامنا، والمصباح الذي يغذيه هذا الزيت ينز فتيله ضوءاً باهتاً مريضاً. ولست، والحمد لله قبل وبعد، سياسياً محترفاً فأغدق على الناس سلال الوعود ومواسم القطف، بحيث يتبدى أن النصر معقود لواؤه غداً! فكم نحن بمسيس الحاجة إلى أن نخفف من غلواء وعودنا وتقديرنا، لئلا يقع الجمهور في الإحباط تلو الآخر. يقولون: إن التعبئة وما شابه من المفردات تملي تحريض الناس ورفع درجة استعدادهم. ولكن حقن البشر بغير الحقائق والآفاق المنفتحة عليها، تؤدي عاجلاً أم آجلاً إلى استرخاء عام في عضلاتهم وإلى هبوط في معنوياتهم، إذ في آخر الأمر لا يصح كما نقول أيضاً إلا الصحيح.

وهذا الصحيح هو نتاج وقائع موصولة النسب بالتيس، أي أنها عنيدة لا يجدي معها تدليس أو تمويه. وكما أنك إذا لجأت إلى شيء من الكذب مع ابنك، متعللاً بإصلاحه أو فراراً من النهوض بالمسؤولية الملقاة على عاتقك بشأن تنشئته، فأنت واقع لا محالة في أزمة ثقة مع فلذة كبذك تلحق الضرر بك وبه، كذلك فإن الهيئات الاجتماعية عندما تبشر الناس بالجنة العاجلة ثم تقعد عن الوفاء بما تزيّن للمواطنين من عهود وعود فكأنها ترتكب جرم الذي يعطي شيكات من دون رصيد يعول عليه!

في إحدى الحملات الانتخابية الأخيرة أو قبلها - ولا عجب في النسيان فقد بَعَثَ العهد في بلدنا بيننا وبين ما يسمى شكلاً انتخابات، ومن قائل إن النواب الحاليين سيشرعون قانوناً يبقون بموجبه نواباً مدى الحياة، أليس هناك رؤساء مدى الحياة فلماذا لا يسري عليهم تقليد

كهذا؟ في هذه الانتخابات المذكورة كان أحد المرشحين يخوض المعركة في حالة من الدعاية، بحيث تحسب أن المناقشة بينه وبين مزاحه سيكون مألوماً ما حلّ ذات يوم في الجاهلية بين داحس والقبراء من سباق حامي الوطيس، أو أن الأمر سيكون وقفاً بين المرشحين على فرق زهيد في الأصوات شبيه في لغة جماعة سباق «بارك بيروت» الذي استعاد نشاطه بما يعبرون عنه من مزاحجة بين فرسي الرهان المتقدمين في طليعة الشوط؛ الفرق بينهما منخر! ثم ينجلي غبار المعركة بين المرشحين المتنافسين، فإذا بالغزال يسرح بينهما في الشقة الفاصلة، ولم يكن الحال حكاية منخر طال أم قصر. فيفوز أحدهما بالغالية المطلقة لأصوات مواطنيه، في حين ينال المرشح الآخر صاحب الدعاية المفرطة في التفاؤل بضع مئات من الأصوات فقط! نسيب أن أذكر أن هذا المرشح الأخير كان يمثل حزباً تقديمياً!

التفاؤل مرض كنت أعانيه، لكن التجارب خففت من هذه الحمى. لا يعني هذا أنني لم أعد متفائلاً، وإلا لما بقي مغزى للحياة نحياها وندفع في لجتها أيامنا، أو كما قال الخليفة المأمون: «من أراد أن يطيب عيشه فليدفع الأيام بالأيام». لقد أصبحت متفائلاً عن دراية لا عن غريزة. لم يعد تفاؤلاً عفويًا، وإنما هو تفاؤل مدروس تتحكم فيه الحسابات. فحال تفاؤلي إذا قيس بالتفاؤل العفوي، كحال الزهور الاصطناعية التي أكرهها بجانب الزهور الطبيعية. هذه قوُح وتلك منظر، هذه قلب يلهج ويندفع وتلك عقل يحسب ويحتاط. صار تفاؤلي مع الأسف زهرة اصطناعية.

وما أحرانا أن نأخذ أنفسنا بالحذر والحيلة عندما نخطب الجماهير فلا نندق عليها الوعود بغير حساب، فهي عُدتنا وكُنزنا الباقي لمجابهة الصعاب. إن أقوالنا الموجهة إليها إذا ما كانت تجانية فسوف نخصد شجرة زيتون يابسة عجفاء. لم تعد الخطابة فعل حاسة فقط، وإنما هي توجيه رفيع المستوى ومسؤولية جسيمة ومدرسة لتربية المواطنين على فهم الأحداث في ضوء العقل والمنطق والخطّة أو ما ندعوه الاستراتيجية. إن الجيل الحاضر مدين بالكثير في تربيته السياسية لجمال عبدالناصر، لقد

كان طرازاً مستجداً في فن الخطابة، ولم تبقَ معه على شاكلة خُطَب مصطفى النحاس زعيم الوفد أو على نَسَق خُطَب مصطفى كامل الفارس الرومانسي للحزب الوطني.

وبمناسبة ذكر مصطفى كامل فإن أُمِّي - طيب الله ثراها فقد كانت مثلاً نادراً في الطيبة والصدق - قد رغبت إلي ذات عام مضى وانقضى عليه زمن طويل، أن تشاهد فيلماً كان معروضاً على الشاشة حول حياة مصطفى كامل وجهاده. وذهبتنا إلى ساحة الشهداء وجلسنا في الصلاة نستمتع تقريباً من أول الفيلم السينمائي حتى آخره إلى سلسلة تربية من الخُطَب لا ينضب لها مَعين. كان فيلماً تعباً من حيث الإخراج، وكنا نحن نعسا أيضاً بسبب مشاهدته. على أن حبنا لكامل ظلّ ناصعاً، فالوفاء الوطني لا يقابل إلا بمثيله. وعندما شاهدتُ جنازة ناصر المهية في فيلم يوسف شاهين «عودة الابن الضال» أُمسيت كتلة هالعة دامية!

ليت إعلامنا الوطني يتسَّق في الخطو والجهر مع أفعالنا، فلا يحدث عندها شبه طلاق أحياناً أو عدم انسجام غالباً بين الأمل الإعلامي والعمل الحاصل على الطبيعة. وإلاّ فنحن واقعون لا محالة في حفرة المثل العامي الوارد علينا من أرض الكِنانة: إسمع كلامك إصدّق، أشوف فعالك إتمعّب! ولا نتكلم على الإعلام الرسمي فمن يسمعه لا يصدّق بعدها أن هناك حرباً أهلية في لبنان قاربت في عمرها السبع سنوات! فجّلّ ما تبثّه إذاعتنا مبنية على إيديولوجية خرفة مفادها أن لبنان بألف خير، فهو محبة واخضرار ووثام ووفاق وغيرها من المفردات الكاذبة. إنه «التكاذب الوطني» - على حدّ تعبير المفكّر الشهيد كمال جنبلاط، هذا الذي كان كبيراً وكان لبنان لقياسه وطموحه صغيراً.

(١٩٨١)

وردة تعبر الحدود

دعني مناسبة سارة - ورب سائل يقطع عليّ حبل الكلام ليقول محتجاً
ساخطاً: وأين هي اليوم هذه المناسبات السارة؟ وأجيب: نهر الحياة
دفاق، ولولا قوة البقاء والعمل والاستمرار التي يختزنها شعبنا بسخاء
وحيوية عجيبين لكان الهلاك نصيبنا منذ زمن والاندثار مآلنا. الصمود
في بلدنا كلمة ذات مدلول يقف عنده الغريب مشدوهين، ولستُ ههنا
أصدر عن كلام خطائي أو رومنتيقي أو غنائي، فالحقيقة الناصعة أن ما
توالى علينا من أحداث جسام ونكبات وفتن وصدمات كانت كفيلة كلها
بأن تهذّ الجبال وتفتت كبد الصخر. ولا شك أننا الآن متعبون، ويستبد
بنا الإرهاق، ونعلم بنوم هادئ مديد وكأننا لم نَم منذ زمن طويل! هذا
صحيح، ولكن الصحيح أيضاً أن المعركة عبّر الجنوب تطبع حربنا
الأهلية «الأخوية» بوجهة جديدة، وتنقل القتال من مستنقع الطائفية
الأسن والمنحى العبثي الجنوبي الى هوية التحرير والإطلال على صباح
الوطن الحقيقي لا الوهمي. ولن يتم هذا التحول بهدوء وتلقائياً ومن غير
خراب وضحايا ودموع. فهناك تداخل مأساوي بين الداخل الأهلي
والخارج العدائي. ولعبة الأيدي الممدودة من هنا إلى هناك على الحدود
وعبرها ستحرق الأصابع، وقد أحرقتها بالفعل. فتمتق يعتبر أصحاب
لعبة الأيدي، أم أن التاريخ كما يقول بعض المفكرين أعطى درساً واحداً
وهو أن لا أحد يتعظ بدروسه ١٩

الحرب الأهلية لم تخرعها نحن، فهي مفروضة على خبزنا وغدنا. ولعل
الآية الكريمة تعتبر أصدق تعبير وأوفاه عن حالنا: «وقد ابتغوا الفتنة من
قبل، وقلبوا لك الأمور، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون».

وأمر الوطن هو من أمر الله. فأين المفر مما نحن فيه؟ ولن يكون العلاج بإدارة الظهر للحرب، أو البكاء على الأحوال مع تغييب أسس الصراع، أو المساواة بين القاتل والقتيل. الحل كامن في التطلع جنوباً وتحويل التذابح الطائفي إلى معركة تقرير مصير وورشة بناء مستقبلي على قاعدة العلمانية. وهذا شعار العلمي القائم في العلمانية تداولته فئة من اللبنانيين طويلاً وزايدت به على الآخرين ناعية عليهم التخلف والجمود وحتى الطائفية، حتى إذا ما اقتنع هؤلاء « الآخرون » بصوابية الشعار انقلب المطبلون له في أمس إلى مخاصمين له اليوم، بدعوى جديدة مبتكرة وهو أن العلمانية سبيل هؤلاء الآخرين بغية الوصول إلى السلطة والاستيلاء على مقاليدها! إذا كان التقاسم الطائفي بليّة لبنان المزمته ونافذته المشرعة على الحروب الأهلية المتجددة، وهذه حقيقة لا مجال إلى المماحكة في صحتها المطلقة. ثم إذا كانت العلمانية، بما تتيح من إمكانيات فعلية لتشييد دولة حديثة منزّهة عن الأهواء المذهبية إلى حد كبير، ليست حلاً علمياً ودواء شافياً لأمراضنا الخبيثة. فأين يكمن البديل العصري، بالله عليكم، ومن أيّ مستودع احتكاري للأدوية يأتي العلاج، وهل المرض المعاصر يُدارى بمداواة عائدة إلى العصور الوسطى والقرون الخالية؟! نفهم تماماً أن إصلاح الديمقراطية يكون بمزيد من الديمقراطية، أما الطائفية فلا يكون إصلاحها بالمزيد منها وعلى طريقة النُومامي الشهيرة « وداوني بالتي كانت هي الذاء »! هناك فارق عظيم بين أن يموت الإنسان مجاناً وبغير جدوى وبلا منطق أو قناعة أو إيمان أو هدف، وبين أن يستشعر أن التضحية سيكون لها ما بعدها ولن تسقط في فراغ وصمت وضَياع! وأبطال المقاومة في الجنوب وأهلنا هناك يُلقون كل مطلع فجر علينا جميعاً، نحن ههنا في بيروت خطوط التماس والضاحية المدثرة، وطرابلس المشتبكة من حين إلى آخر بين القبة وبعل محسن، والبِقاع، والكورة، وعلى كل قرية وحي وزاروب؛ يُلقون علينا الدرس الكبير أنهم عرفوا السر الأعظم في خلاص الأوطان وهو مقارعة العدو بالحجارة والرصاص والقنابل وكل ما تصل له الأيدي حتى يتحرر التراب ويعود إلى أهله. أبطال الجنوب، أطفال الجنوب، نساء

الجنوب، يصدق فيهم ما قاله مرسيل كاشان في وصف غبريل بيري الذي أعدمه الجلادون الهلريون في فرنسا عام ١٩٤٢: «إنهم لم ينتظروا النهار حتى يؤمنوا بالنور».

لم أسمع في حياتي بصمت مدوّ كهذا الصمت الرائع المنبعث من شباب «جَمُول» (جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية). إنهم يقاتلون بصمت، ويُعتقلون بصمت، ويُجرّحون بصمت، ويستشهدون بصمت ولا أجل ولا أجل ولا أروع! «جَمُول» ليست واجهة للدعاية والطبل والزمر والخداع والتجارة وشقى صنوف الكذب الذي أضحى لكثرتة خبز أيامنا الكالحة تنغذى به ونستحيل أكاذيب تمشي وعقولاً مستعارة! «جَمُول» تنفض عن عيوننا اليأس وعن كاهلنا الوئى وعن قلوبنا رعشة الخوف والاغتراب ولا معنى الزمن، إنها تؤسس فينا مواطنين لا طوائف وشعباً لا مذاهب وشمساً وقمحاً ومرجّ فضائل. ولكأني بها وهي في تصميمها وعنادها وديمومتها في مقاتلة العدو الصهيوني المجرم الجبان، وذلك ليل نهار بلا هوادة، قد عناها شاعرنا أبو تمام في ما قاله ذات يوم غابر، في رثاء القائد محمد بن حيد الطوسي الطائي زمن المأمون:

فأبست في مُستنقع الموتِ رجُلَهُ وقال لها: من تحتِ أخصيكِ الحشرُ.
بلى هو الجنوب مستنقع الموت للإسرائيليين ويوم الحشر، فعند كل زاوية من الجنوب ينبت مقاتل، وخلف كل صخرة تكمن بندقية، وفي كل قرية مهرجان للشهادة والعطاء. وقد نسي القارئ حتماً أني بدأت مقالتي بالقول: «دعني مناسبة سارة»، ثم انقطع الكلام بسائل مفترّض يحتاج عليّ، ولو درى لأفسح لي في المجال لأن هذه المناسبة السارة كان الجنوب أيضاً داخلاً فيها على الخط. فلقد قصدتُ بائع الأزهار أتزود من عنده بباقة ورد من اللون الذي أهواه وهو الزهريّ بلون العشق بلون الحلم، وعثرت على ضالتي وحسبت أنها واردة علينا من هولندا أو الشقيقة مصر، وكانت المفاجأة أنها ورود من الجنوب، «أبو الأسود» موطنها ومثلتها. ولكن الجنوب تطوّقه الحواجز والأسلاك والأحقاد، فكيف وصلت الينا؟ أصحابها يحملونها في كرتونات عبر الشّعاب، حتى إذا ما

وصلوا بها إلى نقطة على « الحدود » الجديدة دفعوا بها إلى مَنْ ينقلها إلى
العاصمة . وآملُ ألا أكون قد أفشيت سرّاً ! أخذتُ الباقية مزهوّاً بها فرحاً
كالأطفال ، ومشيت بها يستخفني السرور الغامر ، ومضيت بها إلى
الأصدقاء وكأني أجل لهم وديعة غالية وهدية لا تماثلها هدية . تصوّروا ،
ورود من الجنوب تخترق الموانع والأسلاك والجِراب . ويا أهلنا في
الجنوب ، ستدق الساعة لا ريب فيها ، وسيأتي اليوم الذي لو جمعنا فيه كل
ورود الكون نذهب بها اليكم فلن تكون كافية لتكريم شهدائنا هناك ،
بُناة الوطن والغد .

(١٩٨٤)

الرجراج

أحد مستوردي الجوخ في بلدنا يبشّر الجمهور اللبناني بوصول الساتان الأبيض الرجراج الإيرلندي إلى محلاته العامة. ولا يملك قارىء هذا الإعلان إلا أن يردد، والحال هي الحال والشقاء يلفّ حياتنا كالسوار من المعصم، المثل الشعبي المأثور: الناس بالناس والقطه بالنفاس! ولكن مهلاً أيها القارىء، فهذا الساتان الرجراج ربما لا يعينك أمره لا من قريب أو بعيد كما لا يعني، غير أن الطبقة المترفة ذات الأرواف الرجراجة والأفنية المرازاة قد تكون في انتظار له ليكسو «عُرْيها» وفي لفه إليه ليُشيع «جوعها» الى الحرائر واللطائف. فالعُرْي نسبي ومختلف بين طبقة وأخرى، وكذلك حال الجوع. هناك من يبحث عن لقمة يسدّ بها جوعه المستر، وهناك من يعتبر التخمّة نقيضاً للجوع. على أي حال ما كتبنا ههنا لنبحث في الطبقات، فهي قديمة منذ نشأ التبادل ودارت الصفقات. وإنما مدار كلامنا على هذا الرجراج، فليس هو بمقصود على الساتان المفرح الوارد علينا من إيرلندا - فكّ الله عقدة حربها الأهلية وكسا لياها بالساتان الأبيض الذي تتكرم به علينا - بل إن كل ما يشيع في حياتنا اللبنانية منذ سنوات يبدو رجراجاً. ولو لم يكن الأمر على هذا النوال التعيس الكئيب لما أتيح لي أن أقرأ منذ أيام على باب إحدى الصيدليات هذا الإعلان وكأنه «الأوكازيون»: قياس الضغط بخمس ليرات! كما تجود إحدى الإذاعات وبلبلجان بهذه الوصفة الطبية المدهشة: إذا كنت تشعر بالضيق، عزيزي العامل، إضحك! وشرّ البليّة ما يُضحك. ولأسبوع خلا، وخلال أحوال أمنيّة رجراجة، كنت أمشي كما كان يعيش أمين الريحاني في حدائق نيويورك سهلاً، أي على غير هدى

وغاية محددة، ولكن مع الفارق الكبير أن بيروت بغير حدائق وأرصفتها وأطراف شوارعها طافحة حالياً بالقمامة المكثسة ومزروعة بالخوازيق من كل حجم ولون. فكان أن وقع نظري في إحدى الواجهات على هذه العبارة: ثَقِبَ الأذن بدون ألم! فترامت عندها إلى خاطري حكاية الرجل الذي نام وعروسه في الليلة الأولى فاكتشف أن الطريق، كما كان يصرخ بسدّاجة الإذاعي شريف الأخوي إبّان حرب الستين، سالكة آمنة! فسكت على مضض، وفي اليوم التالي شاهد هذا الرجل زوجته وهي تحاول ثقب أذنيها، فقال لها: يا فاجرة، ما هو أهل للثقب في بيت زوجك تقومين به وأنت لدى أهلك، وما هو جدير بأن يُثقب لدى أهلك تنبرين له وهنا!

لست في حاجة لأن ترجح أحداً في بلدنا، فكل امرئ يكاد يكون رجراجاً في حركة تلقائية كأن نابضاً خفياً يفعل في كيانه وأعصابه. من المؤلف أن كل مهنة تُكسب صاحبها ردود فعل معينة، فلا عجب أن تنبئ لدى ضارب على الآلة الكاتبة تورطاً في الأصابع، وعند حدّاء وهو يحاول أن يقنعك بصواب رأيه حركة يذْهَابطة صاعدة، ولَدُنْ معلّم طغة تشدداً حنبلياً أو «دوغرائية» مرّضية! وحربنا الأهلية الفريدة التي سندخل بوساطتها مُتحف التاريخ بلا ريب، لأنها تتكشف فينا عن مخلوقات عجيبة، قد أبرزت في جملتنا العصبية ومحتوى حديثنا ومفاصل حوارنا قاموساً نفسانياً متجدداً لعل أبرز مصطلح فيه هو الرجرجة.

وكيف لا نصاب بها وأنا أكتب هذا المقال اضطررت إلى التوقف عن تدبيجه عدة مرات بسبب القصف «الأخوي» المتبادل بين شرقستان وغربستان، إذ من الحب ما قتل! ولا تسل كم يعاني مواطنونا من اضطراب وخفقان يتسللان إلى العقول والأعصاب والأفئدة، ولعل خير مهنة مدرار تتاجر بها كلبنا في غدار أن تستورد بوسائلك الخاصة، وما أكثرها هذه الأيام، الأدوية، بخاصة المهدئة والنومة، فهي «البونبون» الشائع لمكافحة الرجرجة.

للمفاهيم في بلاد الله الواسعة المتحضرة تحديدات يتوافق عليها الناس وتعمل بها المؤسسات وتنهض على ركايزها الأوطان. وهذه المفاهيم هي موضع تنازع بين الطبقات، كل منها تشدّ اللحاف إلى جانبها وفقّ إيديولوجيتها ومصالحها التاريخية. ولكن يبقى الوضوح مخيماً والقطع حاسماً، فإذا بمفاهيم الوطنية والحقوق النقابية وديمقراطية التعليم والحريات العامة، إلى غير ذلك من دعائم الدولة الحديثة، مصونة إلى حد بعيد، فهي من مسلمات النزاع السياسي والتجاذب الحزبي. وذلك لأن هذه الدول نفضت عن كاهلها الغيبيات والحكم الفردي الاستبدادي، وكان الإنتاج فيها يعول على الزراعة، وعلى المطر الذي يأتي وقد لا يأتي، وعلى المواسم التي قد تكون وفيرة أو شحيحة، وعلى الفلاح الذي تظل عيونه مشدودة إلى السماء لئلا تبخل على زرعه بالماء المحيي. وعرفت هذه الدول بعدها الصناعة وما تتطلب من انضباط ودقة وتقنية، فغدا المجتمع عصرياً، علمي الطابع، وشاعت في أرجائه النظرة العلمانية. فأين نحن من هذا كله والرجرجة في المفاهيم تبدى سيدة الموقف؟

منذ تأسس هذا الوطن الصغير، الحافل من غير غرور وأساطير بالإمكانات المبدعة، والإنجازات والمفاهيم والقيم تنلبس، عبّر طوائفه ومذاهبه وقبائله وعشائره، كبوساً يتبدل بين موقف وآخر، بين منطقة ومنطقة، بين يوم وثنان... فالغرائز لا يمكن أن تبني وطناً حقيقياً دائماً، ولا أقول سرّمدياً لأن هذا حشو كلام، فالوطن يبني باستمرار وعندما يضيقه حكامه، كما حلّ لنا، فهو يصبح شبه وطن ويسقط في دوامة الفوضى والصّياح والتفتيت، فأين عندها السّرمد والخلود؟ داؤنا الطائفية ودواؤنا العلمانية، وما عدا ذلك فالج ما تعالج. وكلما أوغل بعضنا في الطائفية والمذهبية وربما وصلنا بعونه تعالى إلى الطرائقية نسبة إلى الطرائق الصوفية، وكلما تشبّث بعضنا بماضٍ ورديّ آفل وعهود سعيدة مغلوطة، انحدر لبنان مع هذا التشبّث وذاك الإيغال إلى هاوية الجحيم والخراب الشامل. وربّ قائل عندها: طوبى للمهاجرين إلى مونتريال والفارين إلى

أسوج والخالين ربوع وادي اللوار ، فقد كسبوا وطناً جديداً ولم يחסروا
وطناً قديماً ، لأن هذا الوطن المارب من بين ضلوعهم الهالعة أضحى
خرائب و « غيتوات » وشعلة نيران وأحقاد ومحافظات رجراجة بمن
فوقها ، فهم يقيمون فيها اليوم ويفادونها غداً ، والمتحاربون يومهم خر
وغدهم أمر وانتقام ومزيد من الضحايا والفرائز الساطعة !

ولكن مهما توالى على هذا الوطن من مأس وأثام ، ومهما اشتدت به
الأزمات والنكبات ، فلن استبدل بمدنه وأحيائه وأزقته وبشره وشطآنه
وقراه وحكاياه إقامة رحية ناعسة فوق أرض فنلندية أو أميركية . ولا
أقول هذا الكلام بغورة حماسة وطنية أو بدافع الموعظة والإرشاد ، فلغيري
قداس الأحد أو خطبة الجمعة . ولكنه التعلق الطبيعي ببئعة نمت امانى في
مساكنها ، وكلما ادهمت بها الليالي ازدادت انشداداً إلى يوم يأتيها الفرج
ويزغرد فيها الفرح . وخلال الحصار الإسرائيلي لعاصمة أبت الذل
والاغتصاب جاء في الهاتف من باريس ملهوفاً يسأل عني ، وكان جوابي :
ولماذا الرحيل ؟ أقيم بين جدران عاصمتي الرائعة عن قناعة وتصميم . وأقول
الآن مجدداً : ولماذا الرحيل ؟ أليست المقاومة الوطنية اللبنانية هي العضو
غير المعطوب في جسد الكيان المسمى لبنان ؟ هذا الشعب يخترق دائماً
الظلام بقواه الحية ويعلو عندها على الجراح النازفة والتناقضات المميتة .
فلماذا لا ننسب إلى الغد ونكتسب بطاقة الوطن الوليد ؟ لماذا لا نخرج من
نفق العقل الرجراج والأفكار المهتزة والنفوس الزائفة ؟ لماذا لا نطرح
الطائفية وبناتها ونعتنق المقاومة والعلمانية سبيلاً أوحده للخلاص والتوحيد
والمستقبل ؟ وما ننادي به ليس « روشة » ، إنه درس الحاضر والتاريخ ،
فهلاً اعتبرنا أم ستظل الرجرجة تأكل من أعصابنا ومصرنا ؟

(١٩٨٥)

السلطة والكرهول وفن التنجيم

وتزاحم الأولاد، والجراءة ملء الجوانح والعمر، على الحية الصغيرة فروّعوها بدل أن تروّعهم وقضوا عليها شر قضاء، وها هي مرمية عند طرف حوض الأزهار لا حراك فيها ولا نأمة. ومررت بها - وهي مينة طبعاً، إذ لا صداقة تصلني بالحيات أو هواية، وليس في شجرة عائلتنا أي أصول هندية ولم أعثر فيها حتى الآن على مهرجا هربان متدلّ من أحد غصونها بحيث آتس بالحيات بحكم صلة الدم والنسب - ونظرت إليها غير معجب ولا ولهان، فتقدّم مني أحد «الحكماء» من أبناء الشعب وقال من خلف نظارته السمكة، وهو سمك الجسم أيضاً، بحيث إنّ السّماكة مقوم شائع فيه يأخذه من أقطاره جميعاً: هذه الحية لم تمت! وتعجب أحد الأولاد من هذا القول، فمدّ رجله براءة يحرّك بها الحية، فبدت هامدة تالفة. ولكن هذا التقليب بالرجل الولادية لم يزحزح «الحكم» عما اختزن في صدره السمك من رأي ومعتقد، إذ تابع ما بدأ من قول فأشار أن هذه الحية لا تموت حقيقة حتى يطلع النجم!

ولم أدر ما يقصد بكلمة «حقيقة»، ولم أعبأ بسؤاله عن الفرق بين الحقيقة والمجاز ههنا، إذ خشيتُ أن يزداد تفاصيحاً وسمّاكة والدنيا حر قانظ بحيث يهوى الإنسان أن يصير سمكة أو أن يعيش، كما هو حال الناس في بعض غابات أفريقيا، غريّاناً غير خجلٍ! ومن أين يأتي الخجل فقد أثبت علم الاجتماع أن هؤلاء الناس الأفارقة يدهمهم الخجل فقط عندما يسترون ببعض الثياب، إذ الوضع الفطري عندهم أن يكونوا عُرّة. فالثياب من ابتداء الحضارة، أما التنويع التجاري الموسمي المتأنق في الثياب فهو من مبتكرات البورجوازية لا ستر الله لها عورة ولا وقاها من

ثورة! ونحن طبعاً لا ننادي بالعودة إلى الحياة الطبيعية ولا ندعو إلى إطلاق موضة العُري، وإنما هو الحر الكافر دعانا إلى هذا التَّزق والاستطراد. وللمناسبة فإن أوروبا تُسرع الخطى نحو العُري، إذ بات من المعتاد على الشاطئ أن تظهر السباحات مرتديات «مايو» قد طارت قطعتة العليا، أما السفلى فما زالت موجودة، ولو بشكل رمزي، وذلك حتى تاريخ كتابة هذه السطور! مع العلم أنه لسنوات خلت خرجت إحدى الإنكليزيات على الشاطئ وهي مطلقة الصدر حرة النهدين فقبضت عليها شرطة الأخلاق! وقد أخبرني إحدى اللبنانيات أنها وجدت حرجاً عندما احتفظت بثوب السباحة بقطعتيه عند الشاطئ الفرنسي، نظراً لأن منظرها كان غير مألوف، فهي كاسية بين عاريات، ومحاصرة بين موج مُزبد يضطرب فوق الماء وموج عارٍ يضطرب فوق الصدور، أما البنات الصغيرات فكُنَّ ربي كما خلقتني! وهذا كله يوضح أن الأخلاق نسبية، وأن ما هو مباح وحلال وطبيعي في مجتمع معين قد يبدو على النقيض من ذلك تماماً في مجتمع آخر تبعاً لظروفه وأوضاعه وتقاليدِه. ولله في خلقه شؤون، والنساء عندنا ما زلن متسترات بحافظات متشدات بالقياس إلى الأوروبيات، فحمداً لله وشكراً أن العسل ما زال في خواني الحِشمة محفوظاً مضموناً.

ونعود إلى الرجل الذي رفض أن تكون الحية مَيِّنة، برغم أنها منتهية، ما دام أن النجم لم يطلع بعد، فهذا ضرب من التفكير نعتته بالخرافي ونحتج حانقين على أنه ما زال موجوداً بيننا. ولكننا لو تمهلنا في الحكم ودققنا في أمور حياتنا لعثرنا على أشباه كثيرة تشي بالتفكير الغيبي والتفاسير التي لا يربطها بالمنطق والعقلانية أي رابط سوى مقبول. ولن نستفيض في الحديث عن قارئات الفنجان حيث يشاهدن من خلاله صُرة مالٍ تأتي وقد لا تأتي أو سهماً عند المفترق يشير الى مفاجأة سارة ليس واضحاً بعد فحواها. ولن نترسل في الكلام على العيون الحاسدة، فنحن من هواة العيون الخضراء الجميلة لكأنها جُزُر السياحة والاستجمام. ولن يذهب بنا الاعتقاد أنه ما زال بين ظهرائنا من يظن أن الزلازل مبعثها أن

الأرض يحملها ثور فينقلها من قرن إلى قرن. ولا نخال أن إنساناً يعيش في عصرنا الحالي، المذهل بما احتوى من اختراعات وإنجازات وسباحة في الفضاء، ما زال يأخذ حديث النجوم، المعبود في كثير من المجلات مع الأسف، مأخذ الجِد. فهذه الأبراج ليست من صنع فلكي دجال، وإنما هي تسلية كتابية يقوم بها بعض المحررين الصّحفيين من باب الباب للهو وتزجية الوقت. فالتنجيم بالأساس ينتسب إلى خرافات إغريقية قديمة العهد آلهت النجوم، ثم جعلت السماء أبراجاً مرتبطة بأسماء حيوانات. ولن نتحدث عن التعاويذ والأحجبة والرقي، وما إلى هناك من تركة اجتماعية مدهشة من الكتابة وفك الكتابة، فهي حرب سحرية خفية ينهّذها العقل الحديث.

فالتفكير الخرافي في مرحلة ماضية من تاريخ البشرية ربما كان ضرورة، ومحاولة تفسيرية بدائية للكون، وسعياً من النفوس القلقة لكي تستعيد طمأنينتها أمام مظاهر الكون المستعصية عليها. ضرب المُنذَل ودعوة الأرواح وحرق البخور وتعليق الأكفّ على أبواب البيوت وقراءة الطالع، وعشرات غيرها من الأساليب التي كانت شائعة في حياة الناس العادية في الزمن الغابر، هي أمور استمدّت مشروعيتها من مجابهة الإنسان المجهول الذي يؤرقه ويبدو له طلسماً. بيد أن العلم، خصوصاً في أيامنا الحافلة بالخيال، لكنه الخيال العلمي العقلي وليس الخيال الميتولوجي الوهمي، قد فك الرّمْد وقضى على الخرافة. لذا يبدو نافراً أن يتمتع إنسان ما بكل المكتشفات العصرية التي لا حدود لها ثم يعمد إلى تفسيرات غيبية لا تتفق بأي حال مع الحقائق العلمية التي يُقرّ بها ويحيا مكتسباتها ويتنعم بها. وهذا التفكير الخرافي قد نجد له تفسيراً في حياتنا الاجتماعية الراهنة على أساس أنه من الترسّبات الفاشية التي لا يمكن الإقلاع عنها ما دامت الأتية بكل معانيها موفورة في بيتنا، وما دام التخلف يأخذ بتصرفاتنا وردود فعلنا، وما دامت الثقافة العلمية ليست بعدُ خبز حياتنا، ثم إن الموضوع كله يحتاج إلى زمن وليس سبيلاً إلى الحل وصفة أو فرمان. ولكن ماذا نقول عن هذا التفكير الخرافي عندما نجده منتشرّاً على لسان بعض

كبار المسؤولين السياسيين في بلدنا التمس. قد تتصور أيها القارئ، بعد قدح للذهن وإيمان في التفكير ومعاناة، أن الحرب الأهلية في لبنان تكمن وراءها أسباب تاريخية وطائفية وطبقية واجتماعية وإقليمية ودولية... ولكن الأمر، لو دريت، أهون من ذلك بكثير، فالآلاف المؤلفة من القتل والجرحى والمخطوفين والمعتقلين والمشردين والمهجّرين والمعاقين والعاطلين، ونأمل أن لا يكون للموضوع بقية وملحق وحاشية وتنمة، هؤلاء الضحايا من أهلنا بالآلاف المؤلفة على مدار السنوات العشر وغيرَ فصول السنة ليسوا، في تصريح لبعض كبار المسؤولين، سوى سحابة صيف طويل وانتهت!

وقد تسأل أيها القارئ بطيبة وسذاجة، أبارك الله ومتّعك بالعقل والعافية، عمن قتل أولئك الضحايا وذبحهم وشوّه أجسادهم وتفنن في التشكيل بهم، فيأتي الجواب حاسماً باتراً: إن كل ما جرى مدسوس على اللبنانيين، لأن ما حصل غريب عنا، غريب عن شعبنا، غريب عن أصلتنا، غريب عن قيمنا... وهكذا فالدعوى إذا ما قامت سهلة الطرح قريبة المنال، فالفاعل هو سحابة الصيف الطويل التي ظللتنا خلال الخريف والشتاء والربيع والصيف، وكان يخنيء طيتها مجهولون غرباء وشياطين حمر ليسوا من حملة هويتنا الوطنية، إذ ما دخلنا نحن الذين تأبى أصلتنا وشيئنا الذبح والتقتيل. أما الميليشيات من كل نوع فقد خُيلَ للبعض رؤيتهم، إذ لم يقدّم بعدُ الدليل القاطع على وجودهم، وإذا صادف أن ظهر بعضهم في صورة عبر الصحافة والتلفاز فالفحص الدقيق أثبت أن سيخن هؤلاء تنبؤ بأنهم من مواطني سري لانكا والفلبين، وقد استغلوا طيبة شعبنا وحسن ضيافته فعمدوا إلى تكوين عصابات سلب ونهب وفعلوا في بلادنا العذراء ما فعلوا، مما يأباه الضمير الحي والمواطنة الصادقة...

البورجوازية المهجنة في بلدنا عوّضَ أن ترفع علمَ العقلانية والتنوير، كما هو مأمول تاريخياً، فإنها تلجأ إلى راية التآذب والأساطير والخرافة، وتبحث في الغمام والسحاب عن علل الأحداث، وترفع الأكاذيب إلى مرتبة الحقائق، وتستر التناقضات المستحكمة بجمل تفاؤلية واهمة. فإذا ما

افتتح مؤتمر لوزان الشهير، على سبيل المثال، وانهمرت الأمطار يومذاك في بيروت، عمت الجوازات عبر وسائل إعلامها أن المؤتمر صائر الى النجاح، ونعلم أيّ فلاح وصل اليه المؤتمر وأيّ وحلٍ طائفيّ انهمر في آخره! وإذا ما طالب بعضهم بتثبيت هوية لبنان العربية - لئلا يقطع الأتراك أو الأكراد أو الجركس وربما السريان ذات يوم بهذا البلد ما دام أنه فاقد الهوية - أجاب بعض أقطاب البورجوازية الحاكمة أن الأمر محتاج إلى لجنة من الدارسين والعلماء ودكاترة التاريخ لتتأكد أن لبنان عربيّ وليس منغولياً أو بشكيرياً (نسبة إلى بشكيريا أحد الأصقاع في جمهوريات الاتحاد السوفياتي). وإلى أن تتألف اللجنة وتنتهي من دراساتها العلمية، وربما المخبرية، فإن كل لبناني هو عربيّ مؤقت أو عربيّ قيد الدرس أو عربيّ على لائحة الانتظار. في حين أن المقاومة الوطنية اللبنانية تجهر يوماً مع كل طلقة وقذيفة أن اللبنانيين بين أكثر شعوب الأمة العربية ولاء للعروبة بالممارسة والموقف، وأنهم لم ينتظروا اللجنة الموعودة ليتعرفوا على هويتهم العربية الأصيلة. فربما انتهت مداولات اللجنة الى نهيهم عن مقاومة الاحتلال، لأنها إذا ما استأنست بأبحاث المطران إغناطيوس رعد فستعثر على صلات قُربى لا يرقى إليها شك بين العبرانيين والفينيقيين، وبالتالي فهل يقاوم الأخ أخاه أو ابن عمه أم أنه يقاسمه العيش واللقمة والماء، خصوصاً إذا كان ماء لِبْطَانِيَا نَمِيرًا ١٩

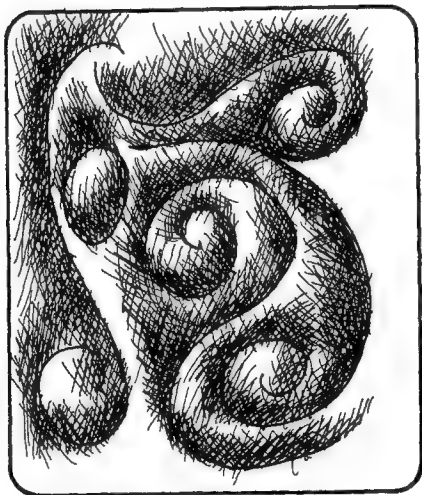
من يعول على بورجوازية طائفية عقيمة، شأن بورجوازيتنا التي قادت الشعب الى المجزرة ثم غسلت أيديها من المسؤولية وأوكلت الأمر الى السحاب والأمطار واللجان التاريخية المخترعة، فهو واصل الى ما حلّ في ذات صيف سابق على الحرب الأهلية عندما استفتت في يوم مشمس وضياء في بجمدون لأجد أن سيارتي قد سُرقت، وكانت سرقة السيارات قد شرعت تشيع في لبنان. فما العمل وكيف أتدبر الحال؟ ذهبتُ إلى الكركول وعرضت عليهم الأمر، فقام أحد الدركيين بتسجيل الواقعة، وعندما سألته عن التدابير التي سيتخذونها لحماية المواطن الذي هو أنا وعن الوقت المفترض الذي سأسترد بعده سيارتي العزيزة، شاعت أسارير بَسامة

على وجهه لم تخفف من مصابي وإنما أفهمتي أن الموضوع موكول إلى الله وأن الكركول قد قام بواجبه على أتم وجه إذ سجل الحادثة بأمانة كما رويتها . وعندما قمت أخرج أقدامي خائباً لمحت في وجه الدركي شيئاً يريد أن يُفضي به إليّ ، فتمهلّت وإذا به يقترب مني ويقول لي إنه سيقدّم إليّ نصيحة قد تأكد من مصداقيتها وهي كفيلة باستعادتي السيارة ، ثم أشار عليّ باسم منجم في بيروت وأعطاني عنوانه ! الناس على دين ملوكهم ، فإذا كانت البورجوازية تعتمد منطق الخرافة والأساطير فلماذا لا تعول سلطتها التنفيذية وأداتها القمعية على الرمل والمنجمين ؟!

(١٩٨٤)

۲۰

الحُبُّ يُدْعِي "نَهْدِيَّةً"



سوناته على البيانو

والليل ساجٍ والمخاطر كلوحة الماء صافٍ والنجوم نواظر، تنهل في
البال كلمة الندى، كرفيف أمل، كافتراق ثغر، كشهقة صدر خجول.
يا لها من قامة خضراء ظليلة، وهذا الوجه الهادئ كأن الشمس سكنته
ولمّا تزل تسطح في حناياه، وهذه العيون طاب للعسل أن يعوم فيها ويفوح
ابتساماً وهمساً. وتدخل في المختلة وتلهو، وتعبر القلب وتمضي، وهو
مشغف تعب وهي ينحدر عن أكتافها شال وورد لكأنه يتهاطل يعبق
يزهو. وجهتها هل كُتب له عليها آية لا فيكاك منها، وشعرها الضارب
إلى الحمرة، المرتفع بكبرياء وحنان، أترأه سيقراً في جداوله مطالع فيض
ربيعي؟

تُطلّ والحفر سربال رقيق يحفّ بها لكأنه هالة، غيمة، قبة، وأنت
منه متأمل تخشى الكلام لئلا تجرح صمته تهتك حضوره تقشع قدسيته.
وتجلس فتخالها راحة في معبد، ترشح السكينة حواليتها، ويضيء السكون
بألقى كلامها المنسكب رقة. هل هي تحكي؟ أم أنه جدول رقراق،
يدخل في الجوانح، يتسلل إلى شغاف القلب، يطفح في مسام الجسم فيجيله
كتلة غيطة وزورق خبور. يا للعدوبة عندما تغدو علامة لإنسان، عنواناً
مرجعاً مرادفاً، اسماً حركياً في السر والعلن، من صفاته الحسنى. تبارك
هذا الجبال كم يوزع من هبات، كم يُشيع من طمانينة. حريرية هي أنامله،
مزهرة هي ضحكاته الخافتة، وحضوره حَبَق وأرجوان وبسمة
«دو قنشيّة» خالدة.

(١٩٨٤)

من دفتر «نهدية»

(١) الانتظار

هذا اليوم كيف إلى نسيانه من سبيل؟ يوم الجمعة، تباركت، في الثالث والعشرين، إثر عيد الاستقلال الشهر، ساعة اللّقاء وكأنها عفوية، غير أنها تحتشد بالانتظار الطويل الذي دام أشهراً. كنت أدير عينيّ فيها وهي كالحففة تتواري، متى يأتي رسول مسعف يقدم أحداً إلى الآخر فتساقط السناثر وينبض الحديث وفي القلب لواعج وعلى اللسان دفق أمنيات وحبل كلام؟ كنت أراها وتراي، غريبين يعرف أحدهما الآخر بلحظ العيون، ويسأل أحدهما عن الآخر بصمت، وعلى جر الأيام تتقد لفة اللقاء وينسرب جدول سرّي بين قلوبنا. ثم تصافحنا في مناسبة اجتماعية والتقينا، وبغير مقدّمات جرى الحديث بيننا رقراقاً. حديث اثنين يعرف أحدهما الآخر، وكلام لا كلفة فيه ولا اصطناع، وكأننا كنا صديقين قديمين ثم عدنا واجتمعنا.

الجمعة ٢٣ / ١١ / ٨٤

(٢) ابنة الماء

جالتُ إليها شعلة خضراء من الزرع تبتّ في هولندا وما درى أن سيكون بطاقة وذّ رسالة تحية على شاطئ بيروت. بعد عهد طويل مضى ومكابدة عتيقة أدركتُ من جديد كم يتعذّب العاشقون وكيف يعيشون الساعات لفة وانتظاراً وشوقاً يمسّ وقلقاً لذيذاً واسترسالاً هائماً مع

الأحلام والرؤى . وجلسنا في السيادة على كورنيس شبه خال ، فالطقس في الخارج بارد قارس والهواء يحمل رذاذ البحر إلى وجوهنا ، لكن الدفء العاطفي كان يشتعل بيننا . وفتحت النافذة ، فخفت عليها من أذى الشتاء . غير أنها لم تبالي ، فهي تحب المطر والهواء ، هي ابنة الماء وريبة الرمال والشيطان ، عيونها العسلىة تنعكس فيها زرقة ساحلنا ، وبشرتها البيضاء أشربت رحيق شمسنا ، أما قلبها فأنى لي أن أعرف ما يجتئى ؟ ستخبرني الليالي هل لي نصيب حنون لولوج مكن أسرارها ، أم لعلّي سأعود محطّم القلب خائباً قد كتبت أشواقى على الماء فمحاهها زبد الأيام ؟

الخميس ٢٩ / ١١ / ٨٤

(٢) النبع

تُرى لماذا أحتفظ بيوميات الهوى هذه ضمن ملف زهرى ؟ أهو لون الحب والعشق وخَفَقان الفؤاد وتمتات الوله ، أم لأني شاهدتها ترتدي فستاناً مخططاً بالأبيض والزهرى وتسَلّقت أشواقى على ممرات تلفّ جسداً تاه قلبي في حناياه ومنحدراته ؟ ما نصيبي ، وأنا المضنى ، من هذا الزهر ، وهذه القامة المزهرة ، وهذه العلاقة الربيعية ، ونحن في خريف يخترق العمر والمفاصل والأحوال والزمن ؟ أهو على رأي المثل « زهر يموت قهر » ، أم بعث للأمال الدفينة وعود إلى أيام البراءة ورسو عند مرفأ الأمان من طول إبحار ومعاناة وعذابات وعواصف ؟ تُرى أيتفجر النبع بين يدي وقد أمضيت الليالي بحثاً عن مكمنه ؟

الأحد ٢ / ١٢ / ٨٤

(٤) اللوز الحزين

صديقتى « نهدية » نامت عند « باتر » . أوقفها الجندي الإسرائيلي

ونظر إليها بعينين من زجاج! أتى له أن يفهم أن جزءاً من روحها تلاشى هناك عند الشاطئ الرملي جنوب الوطن؟ كان البرد قارساً مثلجاً، وقلبها مشتتاً ضائعاً، والجندي واقفاً، والزمن رصاصياً، والشجر غابة من الرماح العارية. قلبها الملتاع يقفز فوق الوديان طائراً إلى حِصْن أم تحشبت أصابعها وهي تشير إليها من بعيد بتلوحة الوداع. وتجمد العسل في العيون الدامعة، والجندي واقف، والسلاح شاهد، والشجر ناظر، والمرحلة قهر واحتلال وحدود نقالة! وعندما مضيت إليها أواسيها خبأت كفي في كفها، كان برد «باتر» ما زال راقداً في أطرافها يغفو مفتح العينين، والأسى معلقاً على جسمها كزهو اللوز الحزين، وابتسامة شاحبة تطفو فوق وجه أتلمس فيه خريطة أيامي الآتيات.

الأحد ١٦ / ١٢ / ٨٤

(٥) الانتفاضة

كان في عيونها حزن ومرجان وكبرياء. كان الأسى يخترقها، لكن الدمع منها غال وضنين. لقد اختارت طريقاً صعباً لم تألف المرأة الشرقية سلوكه إلا عبر الانتفاضة. وهي قد انتفضت ورمت بأغلال الطاعة والحياة التقليدية الخائفة وخرجت على «بيت الدمية» - كما في مسرحية «إيسن»! وجاءها الحصار، الحصار من أقرب الناس إليها، من الذين اقتسمت وإياهم اللقمة واللعبة والأمل والبراءة. إذ كيف يُنجزون عملية الإخضاع والتطبيع والتأديب؟ خالوا أن الحصار العاطفي والمالي يتكفل بالمهمة. وتقول لي في لهجة حاسمة: إنه حصار طبقي! بلى، يا عزيزتي، هو كذلك إذ من يَدُسُّ قِيع البورجوازية يغدو عدوها اللدود ولو كان بالأمس من أخص أركانها. هي قوانين المجتمع المتصارع اجتماعياً ولا مجال فيه لرحمة تصدر عن قريب أو حبيب. المال عصب هذا المجتمع ومعبوده، هو واحد أحد، فمن رفض ربوبيته فقد تهرطق وتزندق! وأرنبو إلى هوجهها

الطافح باللوعة والعزة، هي نورا «إيسن» وكلا را «أراغون»، هي
«المرأة الجديدة» التي حلّم بها قاسم أمين، هي متدى الروح. وتقول لي:
ماذا بعد؟ فأجيبها لأقلب صفحة الأسى وأقرع جرس المزاح والحبور،
وقد طالت غمامة الكتابة وهي تظللنا: أنا على رأي المغني بصوته الصادح
- وأعلم أنها تكره الغناء - «عشقت روحك، وعشق الروح ما لوش
نهايه». ويزهر على ثغرها طيف ابتسامة حزينة!

الأحد ٢٣ / ١٢ / ٨٤

(٦) نجمتان

قُبَلاتها الوردية ما برحت على ثيابي، وأنى أتلفتُ في الغرفة الدافئة
تطالعي بسمتها الفريدة وعناقها الحميم وجسمها الملفوف الذي لم تزيفه
العطورات المجلوبة. هذا الفم الرقيق العذب لا أملّ من سكب روحي في
ثناياه، وأُنحني عليه وتنحني عليّ وندخل بعضاً في بعضٍ كما الموجة في
الموجة. ويضج رأسي تائهاً في جسد هو الخنان ورائحة الأرض وملح
البحر ونكهة السمتر، وعلى فمي مذاق وأريج وفي دمي طمانينة وغبطة.
ومن وسط البهجة والنشوة ترفع عنقها الجميل وتسحب بثرتها الحريرية
وتقول لي ملهوفة: أحقاً تحبني؟ وأضحك لهذا السؤال وتصيبها العدوى
فتضحك، ونسبح في تمتمات ووشوشات. ونمضي الساعات ونجمتان
لامعتان تضيئان صدر السماء، وعلى صدرها تزهو وردتان جوريتان
ترضعان في حلك العتمة من النور السريّ لهذين القنديلين البعدين!

الأحد ١٧ / ٢ / ٨٥

(٧) الحصار

أحاصرها بالحب، تحاصرني بالهيام، واللقاء ما بيننا عناق وزفرات

وعتاب. فما درت يوماً أن العشق يعذب ويضني ويستبد على هذا النحو
بمن يكابده، فهو أتى توجهه وكيفما فكر تطالعه أطياف وذكريات ورفيف
قبلات هامسة وشغف. وعلى صدرها كان أرنبان أبيضان يلهوان يتقاربان
يتكوران يتفلتان بهتان اهتزاز الأماني العطاش في دمي الكثيب.
وأكتشف أن بياضاً زاهياً يكسو هذين الأرنبيين اللاهيين، ويعلوها وثمان
زهرتان كأنها عصارة أقحوانتين نضرتين تركهما الربيع ومضى مزهواً
بصنيعه، وظللتا ههنا أبداً متفتحتين عابقتين بالعطر والخليب!

الجمعة ٨/٣/٨٥

(١٩٨٥)

الكيمياء العجيبة

نهدية، يا ابنة الرمل والأزرق وشطآن المحال. على شفتيك، على
خصريك، على كل رقة من جسمك الألق، ينهل وعد ويهيى هيام. ما
بال هذا الإهاب تحطى السنين وداس ناموسها، فهو يرشح بالياسمين
ويلتمع بالنضارة والندى ويتفتح عن ألف زرّ واحتمال.

نهدية، يا ابنة الأبيض والأسود. أبيض كزبد البحر، كإطلالة المني،
كشهقة العاشق، كفجر الوطن الآتي؛ يتسرّبل بالأسود، يخشى، وراءه،
يخفي سرّه، يلفّ جسده البهي. وبينها يسري شوق وتنبّت أحاسيس،
حب يغلي وتنداح ابتهالات.

نهدية، أيها البركان المطفأ. حديثك في كللانه آثار شَهد ووَجْد،
وصوتك يساقط على رُطباً وفُلاً، وفي نبراتك صُراخ الناقمين وهَمَس
المتلهفين. ولكن حَذَارٍ من هذا المِعْجَن الدافئ الحنون حينما يُشعله مَسّ
من غرور أو عارض من هذا البركان ينسف من الذهن الحالم نهدية وتغور
أعصاب!

نهدية، يا آية العشق ويا سورة الكروان. في صوتك الناعس خيرة من
غَزَل، وفي قوامك المعافي يغفو جمال خريفي فاتن. ولو دَقَقْتُ قلبي لما
أجابك إلا الولّه وتمتات ورجاء. فكُفّي عن الفنون والتفاسير والأهواء،
كُفّي عن لعبة الرجم والوساوس والضّياح. هذا قلبي ينادي فيتردد صداه
كما الصوت في الوديان: نهدية!

وتجول في صدري صَوْر وتنعقد آمال وتطفر فراشات. كم هي عجيبة
كيمياء الحب! واحدة عبّرَ الملايين، ومع ذلك تنبدي مع كل شخصين
يلتقيان كشفاً جديداً وتجربة لكأنها لا سابق لها في تاريخ الإنسان ومغامرة
فريدة. لهفة الكائن إلى مَنْ يكمله ويتوحد به ويتأوج، لسة حانية وتنبوع

خبيء بين الأضلاع، ولولا هذا الماء لغدت الحياة رمالاً في عدد الحيات والنكسات.

ويلوح على الورق، وأنا أخط جَمَراتي، وجه نهديّة تترقرق في أساريه
بسمه مضياف، فأهتف: زهر اللوز في جبالنا. ويعوم في عينها غسل
ربيعي لا ينقضي له فوح ولا رواء. وترفع عُنُقها معترّة تباهة، فيغيب عن
صفحة الورق وجه نهديّة ويملأها عُتق أملس تعلوه شامة كالنجم الشارد
كالنسيحة كالأهة الخيري كالهمة. سبحان من نقش بالريشة الحاملة
ومسح بلون الأعماق.

مطالعة وجه نهديّة إجمار في تخاريم الحلم وثقلته من شيتية الأيام
وتكرارها وعقمها وأسماها إلى مهرجان من الإطلالة الخجلى والحضور
المشتهى، فإذا بالساعات تتوالى ولا من يدري بجرياتها، فزمن الحب له
تقويمه ومناسكه. لماذا تطعنين هذه الهنيئات اللامتناهية بالشك والظنون،
لماذا ؟

نهديّة عاشقة للأزهار والقمر، تستطلع ثغره وتبحث عن ألوانها
وأشكالها. وتنظر إلى الرياحين وكأنها تحدّثها تنبش عن خباياها تهم
بتمنّياتها وتعجب. وترمق القمر وترنو ساهمة، تُرضعه أمانيتها الغاليات
وتكشف له أحزانها العالقات كسمك بين شبك الصياد يحاول الإفلات
ولا طريق. ترى لماذا يغمّر الدنيا حزن دفين، لماذا ؟

عندما تضحك نهديّة تترقرق فوق البحيرة رعشة، تتلفّت نجمة،
يسرح طفل نحو البراري، يطفر ماء بين الأعشاب اليابسة. ولكن كيف
السييل إلى إضحاكها، وهي المشدودة الأوتار ؟ تخال الحياة درساً وسعياً
وواجبات. ومنّ قال لا، لكنها إلى ذلك كله مكابدة وبحث عن الجبال
وضحك من الأعماق وغناء. ومن لم يعرف الضحك لا يدرك معنى
البكاء، ومن لم يعانق الماء لا يدخل في سر الجفاف. نهديّة، يا ابنة الشط
والبوح وترنمة اللقاء، الحياة تناديك بكفّ ممدودة فاركضي نحوها ولا
تخافي بصدر متلهف خافق مواج.

(١٩٨٥)

الياسمين الحزين

الياسمين يهطل على درابزين شرفتي، وأمسك به مقلباً إتياء بين أصابعي، مجتاعاً فوحه في قعر كفي اليمنى المضمومة، وأدنيه من أنفي متحسباً عبره السري وكلمته الودودة، فأحسب أنه غير ما ألفتته دائماً، حردان زعلان قد أضرب عن سلامه المهود، وكان مروحة البيضاء الطرية الملمس المخمسة الخدود استحالت أدمعاً حبيسة وأشواقاً خبيرة.

بلى قد فهمت، هو يسأل عن غادته الأثرية التي يتطلع دائماً إلى أن يرقد هائثاً في حضنها، أن يرتمي عاشقاً على شعرها، أن يتسلل ملهوفاً إلى المنحدر الندي بين الأكمتين المكتنزتين فتنة وحناناً وعسلاً. هواه مع البياض صينوه، بحيث إذا انطرح فوقه غاب عن العين، فتغدو البشرة الحليية ياسميناً ويصير الياسمين بشرة تختلج وتنفس وتحتقن بالرغاب.

ويتلفت إليّ الياسمين شاكياً عاتياً: أين نهديّة؟ وما درى أن أنبي لا يوازي أبداً حزنه العابر، وأن ما أعاني لا يقاس البتة بعتابه وصدوده! كل ما في غرفتي ينظر إليّ، لكانه يتهمني وهو يسألني عنها: الكتب على الرفوف بأحجامها وألوانها وهمومها، الدفاتر والأوراق والقصاصات الخبلى بالأرق والحنين، الملفات حيث تترام الطموحات والمشاريع ومخططات الصحو المشمة، التائبيل العاجية التي كانت تشاهد بجمرة وصمت أسيات الولّه فتكاد تهتز شغفاً وتنتفض لمرأى الجبال، الساعة العتيقة الزاهية عرفت مع نهديّة زمناً غير زمانها الآتي الرتيب أضحت تكنتكتها أنساً وملامسة، الوسائد والمساند تتذكر عهداً معطراً بالفنون والوشوشات، متنفضة السكاير كانت تزدهم فيها الأعقاب ورمادها أنفاس مشتعلة وهنيئات مضيئة وفرح...

غياب نهديّة أقول للياسمين المزغرد المتيان. أصبح الذبول يسرع إليه،

يزحف على بياضه ، فهو يتهاوى يصدأ ينكمش يتكوى . فَقَدْ مغزى شذاه
وتفتحه ، تلاشى من حياته معنى السرور الذي يستشعره عندما يلتفّ حول
مِعْصَم نهدية أو يغفو فوق عنقها وسان نعان . لم يدلف إلى دنيانا
ويتساقط ليلتقطه الصبية يلهون به ويراشقون ، أو يضعه الرجال في
جيوبهم ثم ينسونه غافلين عن لطف محضره الناصع . الياسمين يبحث عن
زند امرأة حنون ، عن أنفاسها الدافئة تختلط بفوحه وبوحه ، عن صدرها
المتكبر يجتال فوقه ويزداد بياضاً متألّقاً على بياض . الياسمين سيدة غيور ،
ولم تكن تُرضيه سوى نهدية بجبالها الجهير وغرورها الخبيء .
بعض الأسماء يُكتب بحجر القلم ، وبعضها نخطّه بقصب المزامر ، واسم
نهدية مداده الياسمين .

(١٩٨٥)

تحت شجرة الانتظار

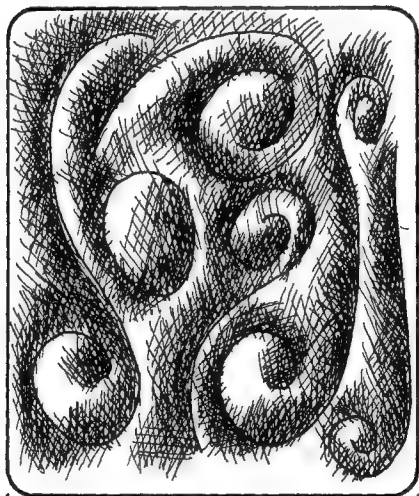
في هدأة الليل على حين غيرة تهلّ عليّ عيناها العليتان اللتان تطفو فوقهما بسمه ، ثم تحتفيان وتبقى البسمة اللامعة معلقة تشع في الظلمة كأنها نجمة . هو طيف « نهديّة » يقرع صحائف أرقّي ، يعاود التغلغل في شغاف حبي المتعقّ المضيق ، ينصبّ في كأس فؤارة حنين وذكريات . يا لهذه المخلوقة جمعت في إهابها النقيضين : رقة بادية كعطر الورد الجوّري ، كرقّة فراشة خيّري ؛ وقسوة مسترة تنفجر فجأة من حيث لا يتخامرك خاطر ولا يدور في خلدك حساب . كيف يتعايش الماء والنار في ذنّ واحد ، كيف يأتلف العناق والبغضاء في حيضٍ رحيب ؟ تراها تتحدث بلسان المفكرين ، فتصغي إلى خريز الحكمة وتقول في نفسك : ما أبدع الجبال والحكمة عندما يتحدان . فلا الجبال منظر لا غير ، ولا الحكمة أقوال عجاف . ثم كمن لسمعتها غلّة أو عشق زندها البضّ دبّور تستحيل بغير سابق إنذار إلى كتلة حرّدة ، فتظلّل نضارتها غيمة من النعمة والأسى . الوسواس الخناس يهددها ، فلا تملك له مقاومة ولا صدّاً ، فإذا الأمر عندها أمران والرأي رأيان وللقضية أوجه خفية لا تخطر على بال ولا تمرّ بذهن إنسيّ . وأتّى للنصيحة تسديها إليها ، وكل شيء في دنيانا غلا ثمنه وارتفعت قيمته ، ما خلا النصيحة ، كانت في الزمن الغابر تساوي جملاً وغدت مع نهديّة تساوي حرّداً . إنها آنذاك ليست المرأة المعتدّة بنفسها ، التياّهة بما صنعت خلّل حياتها متجاوزة عصر الجوّاري ، بل إنها عندها طفلة تكسر ألعابها ، فتاة تلهو بتسوية فستانها الجديد ترفع الكتفين برؤوس أناملها وتضع يديها فوق خصرها وترفع عنقها مخنّالة ! ماذا أقول ؟ في كلّ منا يلهو طفل وديع يقفز فرحاً أمام ناظرنا ساعة نشوة أو انتصار . وفي جسم نهديّة الريّان يكمن شبح امرأة ثانية ناقمة ساخطة

مستشرة، وما أن يُستثار هذا الشبح حتى يغطي واجهة صاحبه ويترفع
ناطقاً باسمها شأن صنم بوذي عبوس!

في صفاء الليل، والليل لباس، يهبط على أصابعي تنهداً، يخترق لحمي
تبسمها، يجول في دمي نهذاً، وأجدني كتلة ملتهبة من الشوق واللهفات.
ذات مرة فتحتُ عُلْبتي البريدية فشمت رشح أناملها عبْر بطاقة دعوة
لمناسبة اجتماعية تتصل بها، وكانت على حضوري حريصة، ولكنني أخلفت
الموعد اضطراراً ولم أذهب. أيّ دَفَق من السعادة سيجيش في صدري إذا
ما فتحتُ هذه العُلْبَة ذات يوم وتنمت من جديد خطو قدميها. إن
عيوني اللاهثة لمرقبة، وأنا، تحت شجرة الانتظار، شاهر قلبي راية غرام.
(١٩٨٦)

۴۲

أَرْقٌ وَوَرَقٌ



الورق الحنون

هناك علاقة وجدانية بيني وبين الورق، شبيهة بالعلاقة الحميمية القائمة بين الفنان ولوحة القماش البيضاء التي يسكب عليها تلاوين عاطفته. وإذا كان الفنان يمرر أصابع كفّه على القماش لعله أن يعقد بهذا صلة من « الحنية » بينها، فإن الكاتب غالباً ما يحدّق في سماء الورق المنطرح مستسلماً أمامه !

وكما الناس أجناس فالورق كذلك صنوف وأنواع. فهناك « الكلاسه »، ويُسعمل في الكاتالوجات الفنية الرائعة وفي الأعمال الأدبية البديعة التي غدت كلاسيكية فصارت خبز البشرية ولا أطيب. ولكل ورق تقنيته، فالورق الكلاسه يتطلب وقت تصنيعه ضغطاً عند تمريره بين الأسطوانات الفولاذية، لكي يخرج أملسَ لمعاً. وعندما أجد هذا النوع من الورق الفاخر تهدره بعض الحكومات والمؤسسات على بعض مجالات تافهة ونشرات إعلامية سقيمة يملكني الغضب، ولكنني لا أجرؤ على تمزيقها رافة بورقها، فله حرّمته عندي !

إن تمزيق الورق عادة بشعة ذميمة. فأنت عندما تحوّل الورقة المطبوعة بعناية إلى كتلة مرصوفة مجموعة بين فكّي قبضتك أو حينما تقطّعها إرباً إرباً وأنت ممسك بها بين الإبهامين والسبّابتين، إنما ترمي الساعات التي بُذلت من أجل كتابتها والساعات التي صُرّفت في سبيل صقّها وطباعتها. وقد تكون هذه الورقة المرمية نوراً وهدياً لمن يقرأها، إذ الإنسانية يبدأ تاريخها منذ عرفت النص المكتوب قبل نحو الستة آلاف سنة، أما قبل ذلك فهي متاهات وفيافيّ وتعليلات .

أحد الأصدقاء من الأدباء الظرفاء يقول إن ابنه الصغير قرأ الكتاب

الفلاحي، يعني بذلك أنه مزقه ورقة إثر أخرى ورمى بها جيعاً من الطابق العلوي حيث يقطنون! واني لأتحيل هذا الكتاب النافع أو ربما النفيس تنهادى صفحاته في الجو ويجذبها الهواء في كل ناحية، ثم تحط أشلاء كتاب مبعثر هنا وهناك فوق سطح من اللواقط التلفزيونية أو كومة من النفايات أو مجتمع ماء أو رأس أحد المارة الذي قد تروعه فينبري شامخاً وما درى أن طفلاً ينهمك في « مطالعة » كتاب عند أعلى البناء !

وهناك هذا الورق الذي يذوب شفافية وبياضاً، ويدعى بالفرنسية « ورق إنجيل »، وهو يشتق اسمه من الكتاب المقدس لأن طبعاته الفاخرة تشتمل عليه. ويوجد في فرنسا سلسلة لروائع أدب هاتيك البلاد، فترى نتاج عمر الأديب الشهير مضموم الأطراف في جزء واحد غالباً، لأن الألف صفحة من هذا الورق الإنجيلي تماثل قرابة مائة صفحة من الورق العادي الشائع في طبع الكتب. وتوجد مجلات وصحف قليلة جداً تصدر في العالم متوسلة بنوع مشابه لهذا الورق الشفاف، بحيث إنك لو طويت المجلة أو بالاحرى لففتها طي مغطفك لما أثقلت صدراً ولا نفخت جيباً. وما دام الشيء بالشيء يُذكر فكيف لي أن أنسى ما يسمى بالفرنسية « ورق زبدة »، والذي يستعين به صديقي الخياط أبو وسيم. فقد عامت زبدة هذا الورق في عيوني من كثرة ترددي إلى مشغله أبني طقماً ميموناً ولا أبصر إلا ورقاً يستحيل نياباً جاهزة لغيري، في حين أنال ما نال ذات يوم أبو الطيب « أنا الغني وأموالي المواعيد »!

على أي حال فإن حظ الأجيال الآن مع الورق هو حتماً في برج السعد. فإن الذين درسوا ما بين الحربين العالميتين توسلوا للكتابة بدفاتر سمراء مخصوصة الحجم كالحية الهية باهتة الأغلفة، وهذا ينطبق على كتب التعليم أيضاً. زد أنه كان هناك أزمة ورق. ولا أدري هل كان هذا المشهد الذي ما زلت أختزنه في ذاكرتي من عهد الطفولة من آثار هذه الأزمة أم أن بطله هو من الناس الذين فات الجاحظ رواية مآثرهم في بخلائه؟ ذلك أني أذكر دفترأ، من غير أن أعني صاحبه أو مكان مشاهدته، وقد كتب عليه هذا الصاحب حساباته بالقلم الرصاص، ثم عاود استعماله كرة أخرى

بالحبر والريشة هذه المرة! وآملُ أن لا تكون هذه الرواية ذات فائدة
للذين ابتلاهم الله بداء الأصابع المضمومة أبداً!

ولا ريب أن استهلاكنا الحالي للورق على النطاق العالمي يبدو مخيفاً.
ولا أعرض ههنا للاستعمالات الوفيرة للورق التي أزالَتْ بضائعَ بعضها، إذ
لم يعد مألوفاً على سبيل المثال وبشكل عام أن يحمل أحدنا في جيبه
مندبلاً، في حين كان هذا الصنف في يوم غير بعيد تجارة رائجة قائمة
بذاتها. ولا أتحدث ههنا عن أنواع من الورق للمرء فيها مآرب أخرى،
وإنما حديثنا منصبٌ خصوصاً على الورق الذي دارت به عجلة المطابع
وقذفته ورقاً متقللاً بهوم الناس وبما يحلمون.

إن ملايين الكتب والجرائد والمجلات تندفق وتغطي كرتنا، فعدد
الأميين في نقصان، وإن كان نسبياً في ازدياد بالقياس إلى الزيادة السكانية
الفاحشة وذلك في رحاب ما يدعونه العالم الثالث، وشكراً لياقتهم فإنهم
اتبعوا التسلسل العددي فلم يضعوه حيث هو عملياً وقمعيّاً أي العالم العاشر
فما فوق! والورق المطبوع ثورة عظيمة في التاريخ، لأنه ببساطة حمى
التاريخ نفسه من الضياع. ولا ننسى طبعاً في هذا المقام فضل الحبر، إذ
لولا لا تخيل كيف كان في الإمكان المحافظة على تراثنا المدهش الذي
يتوزع بملايين المخطوطات عبر مكتبات العالم ينتظر من يحنّ عليه
بالتحقيق والنشر.

ورحم الله أبا عثمان الجاحظ فهو خير مَنْ تَغْنَى بما للكتاب من
أفضال، إذ «الكتاب وعاء ملىء علماً، وظرف حُشي ظرفاً، وإناء شُحن
مزاحاً وجداً... وبعد فمعي رأيتُ بستاناً يُحمل في رُدن، وروضة تُقلّ في
حِجر، وناطقاً ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء». ولهذا غدا
الكتاب سلاحاً خطيراً تستعين به الدعوات الاجتماعية، فهو طريقها لولوج
عقول الناس وتحريكها نحو وجهة التغيير المرتجى. وليس عبثاً أن راکمت
الأنظمة الاستبدادية، خلال العصر الحديث، أكوام الكتب في الساحات
وأشعلت فيها النار. إنها تخشى هيب الأفكار المستنيرة على وجودها العابر.
وأذكر في الستينيات جلسة ضمت لغيراً من الكتاب وقال فيها القاص

اللامع يوسف إدريس: لا أفهم كيف يخرج من بيروت هذا الحشد من الكتب القديمة ثم لا يحصل فيها التغيير الثوري؟ لا شك أن مثالية يوسف الفنية طغت على تقديره، فالكتب لا تُحدث التغيير بمفردها وإنما هي بحاجة إلى اليد التي تُمسك بالقضبة. وما دامت هذه اليد مفتقدة أو مشلولة أو تمحرك أصابعها في غير الاتجاه الصحيح، فالتغيير مؤجل والثورة تنتظر على الأبواب لأنها تبحث عن اليد المضرجة التي تدق بها. يقال إنه لدينا اليوم هذه اليد، فعسى ولعل.

وعندما نتاح لي الفرصة لزيارة بعض بلاد الله الواسعة، خصوصاً تلك التي من عليها بالرقّي والأناقة، فلا يفوتني أن ارتاد مكتبة لبيع القرطاسية علي أفوز بين رفوفها بغلاف جلدي محلي الطابع أضع فيه بعض أوراقه أو بدفتر جميل أخطأ عليه بعدها نتفاً من حبر أرقى وسهادي. فللمورق جاذبيته، فكيف إذا كان «ورقاً صينياً» يُصنع من لحاء البامبو، أو «ورقاً يابانياً» لوتحه بعض الصفرة وهو ناعم الملمس كخدد العذراء، مصقول كبشرتها، لامع كثفرها. ولا عجب فهذا النوع الأخير المترقب من الورق يُستخرج بخاصة من خشب التوت، ومن لمس التوت كمن خضّب أصابعه بالحناء!

من الأشجار والنباتات نصنع الورق، وعلى هذا الورق تنبت أفكارنا وتنداح عواطفنا وتثور أشواقنا. وعندما رثى أبو العلاء المعري أبا حزة في قصيدته الشائعة «غير مُجدٍ في مليتي واعتقادي» تمنى لهذا الفقيه الحنفي أن يكون ورق المصحف له كفنناً قُدسياً جليلاً:

واحبوة الأكفان من ورق المصـ حف كبيراً عن أنفس الأبراد.
وهذه المقالة لن يكون مألماً أن تنام على فراش وثير من ورق
«كوشه» أو «هولزفراي»، إن ورق الصحافة مأواها ونعم المصير!

(١٩٨٤)

الكتابة بالنار

مع عشقي المتأصل للكتابة بدا القلم بين يديّ عاجزاً مشلولاً. أدركتُ الآن كيف أن بعضهم يكسر قلمه في ساعة أزمة خانقة أو ضيق لا يُحتمل. وأنا لست في أزمة أو ضيق، وكيف أكونه وشعي الصغير في لبنان الذي كان دوماً متهماً في مصداقية قوميته ووطنيته، والذي كان يستحبّ البعض إلقاء المواعظ والدروس المتفاصحة عليه، قد أزرى بالجميع ودفع الثمن الباهظ في صمت وبسالة. هل نفاخر فنقول إننا كنّا رواداً للقومية العربية على المستوى الفكري، ثم يدور الزمن دورته فإذا بنا، على ما يحتبس شعبنا داخلياً من معوقات وتناقضات وتفجّرات كيانية بُنيوية، نغدو المختبر الحقيقي لهذه القومية وهي تعاني التمزق والتشتت والحيرة والضياع في لحظة مصيرية رابعة من تاريخها المعاصر.

هذه الأيام التاريخية الفاصلة سيذكرها الكثيرون بعد أن ينطفئ الهول الذي نعائشه ونعاركه. طليعة ثورية تحارب المستحيل بأرقى ما أعطته التّقنية الحربية الأميركية، أمّا أبناء العم والخال من مختلف الأنفخاذ والبطون، لكي لا نذكر بقية الأعضاء، ومن كل فجّ وريح بين الماء والماء، فهم عنا لاهون، ولأمرنا متجاهلون، يتوضّأون بالنفط الحلال، فهم في صلاتهم هذه عاكفون لا يلهيهم عنها نداء أشقاء ترامى إليهم أنهم يتعرضون للقتل والإبادة في مجاهل الجنوب!

وكيف لا أكسر قلّمي حنّاقاً وغيظاً، وهو الضعيف الخائر، في ساعة يمتشق الفقراء السلاح على أنواعه يصوّبونه إلى العدو التاريخي. هؤلاء هم عجين القومية وخيرتها الباقية وديمومتها المنتصرة برغم الخراب والنكبات. قومية الصالونات والأندية والأنظمة المساومة سقطت، وليس من نجمة

أمل تلوح في الأفق سوى أولئك الشهداء تطلع من جراحهم الراحفة
قومية الفقراء بُناة الأوطان الجديدة. وفلسطين هي المحكّ وهي حبل
السّرة لهذا الجسد العربي العملاق تداعب أيديه مياه الخليج المالحة وتمسّ
أرجله مياه المحيط الهادئة. وعلى امتداد الأرض بين الماءين يلهو جُلّ
الحكّام وينساقون ويبدّرون الثروة القومية شبه الخيالية لأمة ما زال هؤلاء
المتحكمون في رقابها يطعنون كل يوم آمالها الكبرى وما تحتبس الصدور.
وأنت، أيها القلم، ماذا تُراك فاعلاً الآن والزمن مدافع وقنابل
وبرمائيات وغارات ودماء وركض وشبان يصمدون بإصرار وملحمة
ويصنعون الأحداث ويدفعون عجلة التاريخ ويشعلون الحريق الآتي بين
الماء والماء؟ ولسوف ترتد فرائص وتختلج رقاب، فالذين يعملون
ويستلبون ويضخّون بالأرواح وبكل جنى العمر ليسوا سواء مع الذين يمتطون
المناصب ويشاهدون أحداث أمتهم، وهي تلتحم مع عدوها القومي، على
الشاشات وعبر أجهزة البثّ وكأن الأمر لا يعنيهم!

دُمى كثيرة ستساقط على أعقابها مع هذا المنعطف الحاسم الذي لا يقل
خطورة وفداحة عن أحداث النكبة والنكسة، لأنه ببساطة هو التصفية.
والتاجر الخاذق يعمد إلى التصفية في وقت يشرف ببيعها على الفتور
والكساد ونهاية الموسم. وهؤلاء الذين يستعون إلى تصفية الشعب
الفلسطيني، ومن ورائه الشعب العربي قاطبة، قد أعلنوا التصفية وسحق
الأسعار بعد فوات الأوان. فلقد استعاد الشعب الذبيح هويته المضاعة ولم
شأنه وأبرز مواهبه العلمية وثمر عن ساعده العسكري المفتول وروحه
القذائية الحارقة، فكيف السبيل للصهيانية وحلفائهم من العرب المتصهينين
إلى اقتناص الفرصة للأوكازيون المأمول؟ روح الشعب لا تموت، فكيف
إذا استعاد الروح بعد مذبحه وتشريد وهوان اشترك فيها العدو والقريب؟
وأراني أجزر الكلام بالقلم شأن الجندي المهزوم، إذ الأوان ليس
أوان الدم البارد والتحليل الهادئ والإقناع المنطقي، وإنما هو أوان الشدة
والعراك واقتلاع عيون العدى الذين شرّدوا أهلنا وما زالوا يلاحقونهم
بالبطش والفتك والدمار والتعتيل. ما جدوى أن نكتب بالقلم، والوقت

لنار يخطّ بها الأبطال بعض سطور الكرامة في تاريخ أمة مهانة، مقطّعة
الأوصال، مبددة القوى، مداسة من الدخّل والخارج.

ثمّ هناك من يحاول أن يردّك عن صراع الطبقات والمصالح والكراسي
والأهواء، على أساس أنها حكاية فات زمانها. لو كان أهلنا بدوّاً لهم
الشيّم الشهيرة التي عرّفوا بها في تاريخنا القديم، لتسابقوا إلى نجدتنا
ولتزاحوا على نصرتنا. ولكنّ أهلنا بدوّ « متحضّرون » « مكندشون »،
وبالتالي فقد باعد بيننا وبينهم شيطان الامتيازات وهذا المرحم العجيب
والشراب المستطاب « إيش إسمها الهنيّه هاذي » الذي يدعونه البرّول!
أهلنا هناك « طبقة » هجينة لو سمع بها ماركس لمات وفي حلقة غُصّة، إذ
سوف تستعصي عنده على التصنيف. ما هذا، حكام بدوّ أميّن يسكون
بثروة العالم! ولكن يُخشى على ماركس أن يقع في ردة كولونبالية لا
سمح الله!

حقى السخرية أصبحت مُرة في حلوقنا هذه الأيام المشحونة
بالاضطراب والبذل. ونلوذ بالصمت القلق، لكنه ليس الصمت المريب
لحكام هذه الأمة المعدّبة. صمتهم ليس فضيلة، إنه موافقة على ما يجري
مكرهين أم راضين. وصمتنا عذاب وبُحث واستشراف لما يحصل لنا
المستقبل.

وها أنا قد كتبت هذه الأسطر الخيري، ودعاني إلى تجبرها نداء
صديقة وهي تقول لي: « لماذا لا تكتب؟ الكتابة ضرورية ». صحيح،
لكن الكتابة بالنار أصدق وأجدي هذه الأيام.

(١٩٨٢)

«الجر بنديّة»

مَنْ يَرَهُ متأبطاً فوق كتفه هذه الحقيبة يحسب أنه ذاهب في سياحة ، أو أنه أحد الهواة يمشي في الأرض طلباً للنزهة والترويح عن النفس ولا يشغل باله شاغل سوى العثور ، بواسطة نظّارته الطيّبة السمّكة ، على قطعة نقدية قديمة أو إناء معدنيّ مطمور تحت تراب التاريخ . وهو يدعو هذه الحقيبة باسم عتيق التداول ، امتحنت ابني به فأجابني متعجباً : وما هي الجر بنديّة ؟ ! وللحق فقد شاقني أن أعرف الأصل الأجنبي على الأرجح الذي دخلت منه هذه المفردة إلى لغتنا العربية ، ولعله أن يكون فارسياً ، لكن مسعاي ذهب سدى . وإن كان التداعي اللغوي حلني على المقارنة والمقاربة بين الجر بنديّة والجِرَاب ، إذ كلاهما يحمل معنى الوعاء . ومن معاني الجِرَاب في العربية : قراب السيف ، جوف البئر ، الوعاء من الجلد ، ولن يمه الأمر وعاء الخُصَيتين !

وللكلمات حياة وموت ، فهي تجري في سوق التداول زمناً ثم تخبو وربما تندثر ، خصوصاً الأجنبية منها ، وذلك تَبَعاً لحياة الشعب والمؤثرات الثقافية والاجتماعية التي يخضع لها . ولو قمنا بعملية غربلة لمعجمنا العربي لوجدنا أن نصف لغتنا لم يعد رائجاً بالتأكيد ، ويمكن الاستغناء عنه في القواميس العامة غير المتخصصة ، وذلك لأن البيئة البدوية الصحراوية التي كانت مرتعاً أصلياً ومهداً لنشأة هذه اللغة العريقة قد طرأ عليها تغيير عميق منذ العهد العباسي ، فكيف الحال ونحن نحيا عصر الفضاء والكومبيوتر والتّقنية العجيبة !

والدهشة التي خالجت ابني لدى سماعه كلمة الجر بنديّة سوف تعاوده إذا ما طرحته على مسامعه كلمات كانت رائجة لعقود قريبة في المجتمع

البيروتي أو الدمشقي وأدركها جيلنا ، لكنها اليوم بالنسبة الى أبنائنا موضع تَسَالٍ لأنهم يغترفون الكثير من مفرداتهم المعاشة من موارد مختلفة ووسائل للإعلام حديثة . كنا نقول « المنزل » « المنزل » « غرفة الاستقبال ، وكان من مألوف عادتنا أن نسمي ما نتناوله من فواكه إثر الطعام « فروتو » ، إلى ما هناك . والصحافة هي المطبخ الحقيقي لرواج المفردات ، سواء كانت مشتقة من صُلب لغتنا ، وما أغناها في هذا الميدان ، أو دخيلة وافدة . إرم مصطلحاً على صفحات الجرائد فيصبح في فحة زمنية قصيرة على كل لسان ، في حين أن المجمع اللغوي تظل جهودها في الغالب خارج دورة الحياة وضمن الغرف المغلقة . وهذه المجمع تُفلح في مصطلحات العلوم المختصة لكنها قد تُخفق في مصطلحات الحياة اليومية وتأنى عن التوفيق ، لأن لغة الحياة تفرض نفسها من تلقائها بغير اصطناع . وللصحافة في زمننا ، كما ذكرنا ، دور مهم جداً في إشاعة المفردات الطارئة على مجرى أيامنا .

ولكن ما بالنا ، فقد نأت بنا المسافة عما شرعنا فيه مطلع حديثنا عن جربندية صاحبنا . ولعل القارئ يخالها ملأى بالأغراض التي يحتاجها مَنْ يذهب إلى مزاولة لعبة التنس ، أو أنها محشوة بالأطعمة اللذيذة بحيث إن المارّ قربها قد تداعب أنفه روائح تفتح المعدة وتُسيل اللعاب . بيد أن حال هذه الجربندية ليست من هذا الصنف ولا ذاك ، إنها جربندية أدب وفكر وفن تحتشد بعشرات الأسماء من أصحاب المقالات كتبوها لتحفظ أرقهم والهموم ، وبعثوا بها إلى القِيم على الصفحات الثقافية ليجول بناظره فيها وينتخب . ولكن الصحيفة تحلّ في طرف من العاصمة والقيم يقيم في طرف آخر ، عفواً هو في شرقستان والجريدة في غربستان - طبعاً إذا وجد قارئ هذه الخاطرة شَبهاً بين محتويات هذا الكلام وحال مدينتنا بيروت فليعلم أن ذلك ليس سوى مجرد صدفة ! وقد تقع مناوشات بين شطري المدينة التي نتكلم عليها ، وبالتالي تنقطع خطوط الوصال وتتأزم الأحوال . ولهذا فالقيم على الثقافة في الجريدة عِوضُ أن يضع مواژه التكاثر في أدراج مكتبه ، فهو يحملها على كتفه ليتدبر أمر إرسالها

إلى جريدته على هذا النحو أو ذاك عندما تشتعل النار ويدبّ الخلف بين القبائل العصرية المتناحرة على ضيقي الجدار البرليني المبتكر الذي نبتت على جفافه من هنا وهناك الأشجار الصغيرة، إذ الزمن متوافر والأمطار الموسمية مدرار والخير على ما يبدو لقدّام!

وإذا صدف، عزيزي القارئ، أن التقيت الأستاذ المشرف يتأبط جربنديته في زحمة من الناس فترقق بهذه الحقيبة واحرص على سلامتها، فهي مترعة بالعواطف والأفكار والأشواق، فإذا صدّمتها فأنت ترجّ جملة أنيقة أو كوكبة من الآراء سديدة أو بيتاً من الشعر يعبق برائحة الأرض. هو نتاج غزير مترام مختلط، فربّ دراسة عن ظاهرة الغشّ في الامتحانات الرسمية، تلوها قصيدة عن نهد حيران، ويرقد تحتها مقال متقن عن مسرح اللامعقول في الحياة والأدب العربيين! نتاج متزاحم متعائق يُخبر أن العقل العربي ما زال يعمل، والمثقف العربي ما برح يواكب الزمن ويلاحق كل جديد. أمّا لماذا نحن كما نعهد من ضياع وفُرقة ودياجير فهذه قصة الأنظمة السياسية التي تسمّز في معظمها من رائحة الديمقراطية؛ وتعتبر الثقافة ديكوراً وحليّة، وربما تخشى أن يزول ظلام الأمية المتفشية في أرجاء الوطن الكبير. ألم نبدأ تعلم القراءة بهذه الجملة الشهيرة التي ما زلنا نحن إليها: العلم نور؟

(١٩٨٥)

القائمة التي نفتقدها

لعل ما يحملي على ارتياد معرض الكتاب الذي يقيمه « النادي الثقافي العربي » في القاعة الزجاجية خلال كانون الأول من كل عام ، بحيث غدا حدثاً تقليدياً مرموقاً ينتظره الناس ويهتفون له النفس والجيب ، أنه يتيح لي فرصة اصطيد كتاب لم أسمع به ، على وفرة متابعتي كل جديد في عالم الحرف المطبوع و « المأزوم » المضمومة . فالتقص ليس متأثراً من الكاتب ، فهو قد أبدع ورمى بمخلوقاته في سوق الفكر والحياة وفي زحمة الناس القارئين . ولكن التقصير يقع غالباً على النقاد ، وما أندرهم في حياتنا الأدبية ، ولعل القول بافتقارنا الشديد اليهم وأننا نعاني أزمة في هذا المجال ليس فيه أي غلو أو إطلاق . فالناقد الحقيقي مرشد لا يُستغنى عنه في أي حياة ثقافية نشطة .

إننا نفتقر أيضاً إلى أجهزة تُعنى بمتابعة التناجات وتقديمها ، إلى جانب مهام كثيرة تُؤكّل إليها . ولعل الحديث المتجدد من آن إلى آخر حول وجوب إحداث وزارة ثقافة لم يفقد أوانه ولا جدواه وجديته . ولا يفوتنا بالمناسبة أن نشر بالخبر والفائدة إلى بعض الدوريات البيبليوغرافية التي شرعت تظهر ، متخذةً من التناج الجديد همّاً لها ، شأن « الفهرست » . كذلك فإن الصفحات الثقافية في الجرائد والمجلات مقصرة على العموم بحق الكتاب ، وهي إذا ما عرضت لبعض التناج المطروح فعلت ذلك في غير تخطيط . وقد يكون للصدقة أحياناً سهم في هذا الاهتمام ، وقد يكون لصلات الكاتب أو الدار الناشرة نصيب آخر في الاحتفال المعني . المهم أن الصفحات الثقافية بإمكانها ، لو وعت رسالتها في هذا الميدان ، أن تلعب دوراً بناءً في توعية القارئ بما يجده من نتاج في عالم الكتابة وإرشاده إلى

الصالح المفيد وحبّه على اقتناء الأعمال الجميلة.

في الواقع كم من كتاب جيّد نلحظ بعد أعوام أنه لم يحظَ بمن ينقده، أو ينهيه إليه، أو يعرف جهرة القراء بوجوده ذلك من الإشادة به. ولا أتحدث عن مشاهير الكتاب أو المفكرين، فهؤلاء أضحوًا جزءاً مؤسّساً من نهضتنا، ولم يعودوا بحاجة إلى تعريف أو تقديم أو لفت نظر. إن أسماء شأن: إحسان عباس، محمود أمين العالم، محمود درويش، نجيب محفوظ، حنا مينه، الطيّب صالح... هؤلاء الذين وردت أسماؤهم في الذهن عفويًا، وغيرهم وغيرهم من المبدعين الكثيرين في رحاب الوطن العربي، لم بعد النقد يضيف اليهم شيئاً عظيماً، فهم قد تكرّسوا في مسيرة ثقافتنا رواداً وأعلاماً، وهَمَّ النقد أن يتابع تطوّرهم ويزيد في سجلهم الخافل فصلاً وقصلاً.

مهمة النقد أن يكتشف الأسماء الواعدة، ويعثر على المواهب الخبيثة، ويأخذ بيد من تنبئ إطلاقاتهم الأولى بمذاق خاص وخيرة. وعندما يقصّر النقد حيال صاحب قلم يكون مقصراً في حق الرسالة التي انتدب نفسه لحملها. وفي ظني أن الناقد ينبغي أن يكون أوفر الناس رحابة صدر وخلق. إن مهنته هي الفرح بالمواليد الزاخرة، فهو القابلة الأدبية التي تزغرد بالتناج الجديد وتبشّر الناس أن كاتباً أغرّ قد انضاف إلى جنود الحرف المكافح. ولست أتخيل أن ناقدًا حقيقياً يمكن أن ينطوي صدره على غلّ أو حسد أو خيلاء. الناقد قيمة أدبية وخلقية. وليس معنى هذا أن يكون الناقد متساهلاً في أحكامه، فالنقد لا يحتمل أسلوب جبر الخواطر وسياسة «منا»!

لقد مرّ علينا حين من الدهر، عندما كان الأدب الواقعي يأخذ طريقه إلى كتابتنا، كان يكفي أن يتكلم أحدهم على الأحياء الشعبية أو يصوّر مظاهرة عمالية في أدبه، مهما يكن حفله من التوفيق، حتى تشفع له هذه البادرة ليفوز بنعوت التبريز والإطراء والتقدمية. هناك أدباء كتبوا مستوحين حياة العمال واضراباتهم، وكان ما كتبوه أدباً جليلاً شأن إميل زولا وغيره من المبدعين. ولعل العبرة الكبرى، في هذا الصّدّد، تأتي من

أديب عظيم خرج من صفوف الشعب والثورة هو مكسيم غوركي. لقد كتب غوركي روايته الشهيرة « الأم » ، وليس عندنا أدنى شك أن هذا العمل لعب دوراً نضالياً وتحريضياً، وهو قد حل كثيرين في كل مكان على أن ينتقلوا إلى ضيقة الوعي والتقدم. ولكن هذه الرواية في ميزان الأدب ليست قطعاً أفضل نتاج جاد به قلم غوركي المرهف. وهي إلى ذلك الأثر البروليتاري الوحيد في تراثه الأدبي. فقد كانت هذه الرواية بعض نقاط الخلاف والنقاش التي ثارت بين رقيقي النضال: لينين وغوركي. إن قائد ثورة أكتوبر كان معجولاً بالسياسة، ولكن لينين كان ينحدر من عائلة مثقفة، وبالتالي فلم تفتّه عيوب « الأم ». وكان جواب غوركي أنه كتبها على عجل! على أن العلامة الفارقة للينينية هي المرونة، لهذا أدرك لينين الفائدة العملية القصوى لعمل كهذا وفكر توجّهه في ترجمته إلى اللغات الأجنبية. وكان تقريظ لينين الوحيد الذي وجهه إلى غوركي، كما يذكر صاحب « الأم » : « لقد جاء هذا الكتاب في اللحظة المناسبة » .

(١٩٨٢)

الكاتب وصمن الذول وسرير بروكست

إن حكاية الكاتب عتيقة مع «الصفيف»، كما كان يُسمى قديماً، عندما كانت الطباعة تقوم على الملمة الحروف ورصّها حرفاً إلى جانب الآخر. وهذا أمر كان سائداً لثلاثين سنة مضت، فالقديم ليس غابراً منسياً، ولكننا نعيش عصرًا انقلابياً مدهشاً عجيباً بغير مبالغة. فكلمة المبالغة نفسها غدت قَرَوَسِيَّة!

إن «العازف» حالياً على طابعة الكمبيوتر قد لا يطول أمده، وإني لأتخيل - وكَمْ تخيل «جول ثرن» ثم بدا أنه كان «مقصراً» في تخيلاته، بالقباس إلى القفزات التي ينجزها عقل الإنسان المعاصر - أنه سيأتي يوم نتحدث فيه أمام آلة، وهي تقوم بمهمة الضرب تلقائياً وبذكاء تُحسد عليه!

إن الآلة التي تنهض بعملية الترجمة قيد الإنجاز، فلا غرابة - عفواً، ما زلت من عصر مضى وانقضى، إذ إني أستمع بمصطلحات تضطرب بالدهشة والاستغراب، وفات قلبي أن بعض عباراتنا بات بحاجة إلى مراقبة وغريلة في ضوء إنجازات العصر. أقول: إذن فمن الطبيعي أن الطباعة القادمة ربما ستكون بغنى عن الإنسان نفسه للقيام بها. ولا أدري إذا كانت الصحيفة ستغدو ذات يوم أغرّ من إنجاز مجموعة من الآلات الدقيقة الفهامة المرهفة التي ستُتمّ بذاتها عملية الاتصال والتحرير والطباعة، ويبقى علينا التوزيع وقبض الاشتراكات!

طال بنا الاستطراد، فلنعد إلى حكاية الكاتب مع عامل الطباعة الذي يضرب الكلام على آلة هي نظير آلة الدكتيلو. والكاتب معنيّ بالآلة تفوته

همزة، وضمة هنا وفتحة هناك، هذا لكي لا ننسى الشدة لأن إهمالها أحياناً يوقعنا في شدة. ويتناول العامل النص فيضرب صفحاً عن كل هذه التدقيقات، وتصبح قصته مع الكاتب قصة صحن الفول.

يُروى أن أحدهم دخل مطعماً، وعندما تقدّم منه الكرسون مستفسراً عن مبتغاه من الطعام، أفاده أنه يطلب صحن فول «إكسترا»، وأتبع الطلب بشرح طويل. فالقول المرجو ينبغي أن يكون سودانياً أصيلاً لا شبهة نُميرية فيه، والزيت ربما كورانياً، ولعله كان صاحب ذوق فأردف في جملة شروحه أنه يصّر على أن يكون البصل من «برُيخ». وهذا البصل، أيها القارئ الذي ربما استفاقت شهيتك إلى الأكل، والمائدة في السطور السابقة ممدودة، هو فاكهة ولا أطيب، فعليك به ولنا الأجر والثواب. وبعد الشرح المستفيض التفت الكرسون إلى المعلم المولج بالفول صارخاً كعادته بلا زيادة: صحن فول للأستاذ!

هذا لكي لا نقول إن عامل الطباعة لا يُغفل التدقيقات التي يحرص عليها الكاتب فقط، وإنما قد يسهو أحياناً - سبحانه الذي عينه لا تغفل ولا تنام - فيحلّل ما يشاء ويرتكب أخطاء مطبعية، أمّل أن يُعفيني منها في هذه الكلمة على الأقل. وقد يتبرع - غفر الله له ولنا - بتصحيح بعض ما قد يعتقده خطأ، وهو صواب. ويبدو أن عامل الطباعة مع الاجتهاد اللغوي الذي يقول: خطأ مشهور خير من صحيح مهجور.

وليت الأمر يقف عند هذا الحد، لكن للكاتب حكاية أخرى مع منسق الجريدة، أو منسق صفحة الثقافة مثلاً. فلربما وقع المنسق، وهذا يحصل دائماً، في ورطة من أمره، لأن بعض المواد يحتاج إلى شيء من التقصير، بحيث يتمشى وحال إعداد الصفحة. ويبدو أن المنسق يحتفظ عند الضرورة بنسخة من سرير بروكست! فهو يتر ما زاد عن الحد، ما همّ هو قد أنجز عمله، وهذه الأرجل الممتدة لمقال أو دراسة يمكن تقليصها. وأخشى ما أخشاه أن يعمد المنسق إلى هذه الأسطر الأخيرة التي قد لا تروق له فيحذفها على أساس الضرورة الفنية.

بنات أفكار الكاتب عزيزات مُحصّنات عنده، بحيث لا يستمّح

لأحد عذراً في منّ عفافهنّ أو التعرض لهنّ بتعديل من تقديم أو تأخير، فكيف إذا وصل الوضع إلى الحذف وتقطيع الأوصال واستباحة الحرّيات. وأذكر في هذا المجال أنّي قصدت المطبعة ذات مرة، لاستلام «بروفة» دراسة مسهبة متخصصة لإحدى المجلات الثقافية الشهرية. وقابلت العامل المشرف، ولم يكن دارياً بأنّي صاحب الدراسة المشؤومة، فقال لي مستاء: «شو هيدا فلان بدو همزه وشده وتشكيل، مش معقول!» فخففت عنه، وتسلّمت البروفة، وغادرت المطبعة من غير تأخير، خشيّة أن يبدأ العامل، تحت وطأة غيظه، بمنتخبات من تحت الحزام على شرف «فلان»!

(١٩٨١)

شكسبير العليبيكي

يُحكى عن الفنان العظيم روبرت أنه، في جميع ما رسم من لوحات «بورترية» اشتهر بها، وضع شيئاً من ملاحظه على قماشه هذه الأعمال! وإذا أنعمنا النظر وشرّد بنا الذهن إلى رؤية مقارنة وجدنا أن الكاتب مثلاً يغترف في الكثير من إبداعاته من جدول حياته وتفاصيل سيرته. فهو يحتمل أبطاله شيئاً من شواغله وعواطفه، هذا إذا لم يستتر خلفهم لكتابة ترجمة ذاتية مقنّعة. ولذلك ينسرب فيض من أفكاره ورؤاه وشهواته إلى نسج أبطاله الذين يدخل في طبيعتهم المتخيّلة جزءاً من عجيب طبيعته.

وهذا التداخل بين الفنان ولوحاته لمسته شخصياً على نحو ما عبّر تجربة خاصة مرت بها وأسمع لنفسه في عرضها تبياناً لفكرة وليس تباهاً أو غروراً، وكلاهما بعيدان عن معدني. فقد تكرّم صديقان فنانان ورّما العبد الفقير، بحبة منها وعلى هذّي المودة الجامعة في ما بيننا. وكلا الصديقين أرمنيّ الأرومة، كما نقول في لغتنا التراثية، أولهما فنان يرسم بالزيت والثاني فنان كاريكاتور من جيل الرواد. وكانت النتيجة أن جُلّ الذين شاهدوني في عملها استوقفهم الملامح الأرمنية في وجهي وتساءلوا متعجبين عن مصدرها! وباستثناء احتمال أن تكون خالطت شجرة عائليّ دماء أرمنية، وهو احتمال تنفيه الدراسة الاثنية حتى تاريخه، فإن القماش المتسللة إلى وجهي من «يرقان» مبعثها أن الريشة التي جرت على القماش والورق كانت تمسك بها يد أرمنية!

وهذا الاختبار تبصّرتّه أخيراً لدى أحد طلابنا، إذ هو شغوف بولم شكسبير، وأي لا يهوى هذا الأديب الذي دخل الخلود من أبوابه العريضة ومكث ناعم البال متربّعاً لا تزيده السنون إلّا تألقاً وسعياً من

الباحثين إلى إعادة فهمه واكتشافه. وهذا الطالب أتى من «البقاع» ينهل العلم في العاصمة. وأسعفته يده الصنّاع الذواقّة في رسم لوحة بالخبر الصيني لصاحب هملت وعُطيل. فما وقفت عندها مرة إلاّ تساءلت مبتسماً: وما دخل شكبير في أهل بعلبك؟ فسحته كما رسمها طالبنا تؤكد أنه بعلبكيّ من هذا السهل البقاعيّ الجميل الذي تنمو تحت شمس الدافئة المجذلي أشجار مثقلة بالطعم والخير ونباتات غير بريئة تبعث الكيف في بعض الرؤوس والأجسام و«يرعاها» بعض «الهواة». ولم يُعرف عن شكبير، على حد علمي القاصر، أنه كان مغرماً بهذه «النفائس الوطنية». ولم يُشر أحد من دارسيه أنه تردد إلى بقاعنا لتزود هذه «الخبرات» المضلّة بحيث ترك مناخنا المختار خلال زوراته المحتملة ملمحاً من بطاقة البقاع الانتربولوجية على صفحة وجه زينة الإنكليز، بحيث قيل إن إنكلترا مستعدة للتنازل عن الهند وليس عن «ملكيتها» هذا الإنسان الشهير!

الشمعة الأرمنية الوافدة على وجهي، والهوية البعلبكية المستجدة لسيد المسرح الدرامي، نتجتا من حقيقة أن الفنّان أو الأديب، محترفاً كان أم هاوياً، له جذور قومية أو وطنية أو محلية تنسكب في تصرفاته وأهوائه وردود فعله الاجتماعية والفنية، وتتبدى على هذا النحو أو ذاك عبّر لون أو شكل أو ميل أو اختيار. وعالمية الآداب والفنون لا تعني الانفلاش خارج البوتقة الخاصة والدائرة الحميمة للفنان المبدع، إنما تكمن في ضرب من التقوقع «المحمود» لنبس مزايا البيئة الضيقة وما تكشف من خصائص. ولهذا يبدو رسول حزاتوف من أقرب الكتاب السوفيّات المعاصرين إلى القلب والذوق، لأنه بالتحديد يتكلم بأسلوب جذّاب في روايته المحلية الشائقة الممتعة «بلدي» على قارة مجهولة لدينا هي داغستان. إذ من الصحيح أن الجوهر الإنساني واحد في نهاية المطاف، ولكنّ هناك تلاوين جمة وطباعاً متباينة وأساليب في العيش والشعور متفاوتة، وهي مصدر ثراء وقد انبعثت من أوضاع بشرية لا مفرّ من مراعاتها وتفهمها. فالوحدة لا تعني التماثل الفجّ الرتيب. وعندما دعا ذات

يوم ساطع الحُصْرِي إلى أدب قومي عربي، فإن دعوته الساذجة بدت انعكاساً لدعوته السياسية التي لم تكن بدورها عميقة الغُور فكرياً واجتماعياً. فوحدتنا العربية المأمولة ستأخذ واقعياً عيضة التنوع في الوحدة، إذ ماذا نفعل بهذا «الموزاييك» التاريخي الموضوعي الممتد من جبال أطلس حتى جبل الباروك؟ هل نُلغي الفروقات على مختلف نبراتها وميادينها، فالخاص لا يلغي العام وإنما يبلوره ويعطيه الطابع المميز والغنى المادي والروحي.

وفي الحيز الأدبي والفني فنحن جميعاً في أقطارنا العربية كافة نكتب ألباً يشع بحرف عربي مبین، وهو تارة يشي بالحدائث، وطوراً يمتزج فيه النمط الكلاسيكي بأقباس من الإيقاعات العصرية شأن ما نطالع لدى الطيب صالح في «موسم الهجرة إلى الشمال» أو أحمد ولد عبد القادر في روايته الموريتانية «الأسماء المتغيرة». ولا نتحدث ههنا عن الكتابة التقليدية السقيمة من شعرية ونثرية التي تنسرح طولاً وعرضاً ولا تقول شيئاً البتة، فهي جمعة كلامية وليست أدباً. وفي الحالتين الأوليين فنحن حيال أدب حي متنوع البينات العربية من الحضارة إلى البداوة، ولكنه يعتبر جميعه عن أزمان هذا الإنسان العربي المقهور أو المقموع أو المشدود إلى أغلال التخلف وكل خلية في جسمه تحفره على التغيير وطي صفحة التعصب والغيبيات، ولكن أتى له ذلك والأنظمة تطحنه عِوضاً أن تُفسح له الطريق. ومن هنا فإن دراسة «سوسيولوجية» لأدبنا العربي الحديث سوف تكشف ولا ريب أن كمية الصُراخ والأنين والتمرد، الناتجة من الاضطهاد على أنواعه و«الكليشات» والزنائين، والراسبة في قعر هذا الأدب، لافتة للنظر كبيرة.

(١٩٨٥)

خواطر طيارة

الـ « طيارة » ههنا ليست اسماً وإنما هي نعت للآراء العابرة التي تمرّ بالخاطر نظير سرب السُّنُونُو يَحْلَقُ وَيَحْوِمُ ثم يمضي خطفاً. وما بالك بطائر كهذا، سريع الطيران، يلتهم الحشرات في الهواء ! والطيارة لم تعد أمراً عَجَباً في حياتنا الراهنة بحيث تبتعث الخواطر، وإن كانت ما تزال مبعث المموم والشجون لبعض الذين يمتطونها وفي البال منهم أن وقعتها وقعة لا استئناف فيها ولا رجعة. وما شأن الطائرة في زمننا العجيب، ونحن نكاد نكون على عتبة اليوم الذي نقصد فيه شَبَاكَ تذاكر لنبتاع بطاقات نخولنا الإقلاع في سباحة فوق القمر. ومن يدري فلعل القمر يصبح في القريب، عَوْضٌ يَزِمَارُ أو قبرص، مكاناً مختاراً للعرائس يقصدونه في شهر العسل قبل أن يحلّ شهر البصل. ورحم الله فوزي المعلوف فلقد ركب الطائرة عام ١٩٢٦ في البرازيل، فما كاد يقوم بهذه التجربة الفريدة لمعهدها حتى فاضت قريحته، أو كما يقول فولكلوريو اللغة العربية: هاجت بلابل صدره، فكان أن أبدع قصيدته الكبرى « على بساط الريح أو شاعر في طيارة ». ولقد ولّت تلك العهود الخوالي، فالتقنية الحديثة جعلت من طائرة فوزي المعلوف البدائية خُرْدَةً من قَبِيلِ حديد يا قضامي. ثم من الطرافة بمكان أن أجل ما في قصيدة هذا العَلَم من الدوحة المعلوفية ليس ما قاله في النجوم والسماء والطيور والأرواح عَبْرَ أناشيد قصيدته، وإنما الجمال الشعري يتضح في عمله عند أوبته إلى الأرض وقد فرغ إلى قلمه بيته شكواه. هذا اليراع هو دائماً بالنسبة إلى الكاتب بمنزلة السلاح والندم والحبيب والحلّ الوفي. وما دام الناس هم الناس فلن يأنس صاحب قلم سوى بريشته التي تنزف صدقاً في عصر يحتشد بالزباء،

وتسأخاً في حين تخفق رايات المذاهب والعصيات.
يقول فوزي العلوف :

يا يراعي ما زلتَ خيرَ صديقٍ لي - منذ امتزجتَ بي - وستبقى
باسماً من سعادي حين أهنأ باكياً من تعاسي حين أشقى
كم حبيب سلا وعهدك باقٍ فهو أوفى من كل عهدٍ وأبقى
أنت رغم الجحود خِلّ وفيّ حولك المستحيل غولاً وعَنقاً
رُبّ دمع كفكفته من عيوني سال حيراً في الطُّرس يخفق خَفَقاً
أنا لم ألقِ مثلَ صمتك صمتاً حولته عرائسُ الشعر نُطقاً !
شرعتُ في هذا التمهيد على أمل أن يكون بضعة أسطر ثم أدلف بعدها
إلى خاطري الطيارة، وإذا بالحديث يستفيض، وكما نقول فالكلام يجرّ
الكلام، وما ذنبي إن كان قلبي يرشح بالفكر، هل أيدها ؟ وواد
الأفكار شأن وأد البنات، والله، حرام ! على أي لن أدع القاريء العزيز
من غير أن أسوق إليه الخاطرة التالية.

في أواخر الأربعينيات التقى دبلوماسي عربي بسفير الولايات المتحدة
في القاهرة، وكان عائداً لتوّه من رحلة عملٍ إلى اليمن. فسأله
الدبلوماسي العربي عن حال اليمن واليمنيين، ففتح السفير الأمريكي
كتاباً كان بين يديه وقال : يحتاجون إلى خمسة آلاف سنة ليصلوا إلى
التمييز بين الأبيض والأسود !

سامح الله سفير العم سام فلقد بالغ قليلاً في عدد السنوات، وما حيلته
الآن - هذا إذا ما كان على قيد الحياة بعدُ ولم يأنس الموت مكرهاً
بصحة أمثاله - إذا ما زار اليمن الديمقراطي وعاصر الشعار المرفوع هذا
العام وهو محو الأمية. ثم إذا ما زالت له عيون تبصر وتقرأ فيسطالع
مانشيت كبيرة زرقاء اللون في أعلى الصفحة الأولى من جريدة « ١٤
أكتوبر »، تتبدل عبارتها كل يوم، وهي مستوحاة من مغزى المعركة التي
يشارك فيها القادرون على التعلم ابتداء من أبسط يمني أصبح يميز بين
الأبيض والأسود إلى الرئيس علي ناصر محمد نفسه.

اليمنيون لا يميزون، وَفَقَ رأي السفير، الأبيض من الأسود، ولكن

الأميركان كما عهدناهم على شواطئنا، وفي مدينة النمل قرب المطار التي
شادوها تحت الأرض على نفقة جيوبنا وعرقنا، ومن خلال مدافع
نيو جرسي التي أثبتت أنها أولد جرسي، هؤلاء قوم أعطوا البرهان،
وسبق لهم أن دفعوا برهاناً ناصعاً كهذا في كوريا وفيتنام وكوبا
ونيكارغوا، أنهم لا يحسنون قراءة العصر ومطالعة التاريخ ويحسبون أن
المدافع الحمقاء وحدها يمكن أن تجعل الأسود أبيض! للمناسبة أجل
الأفلام هي بالأسود والأبيض. هل تحب السينما؟

(١٩٨٤)

لغة الشعب ولغة الجرائد

ما سمعتُ أبناء الشعب يتحدثون مرة في السياسة أو يخوضون في أمور الحياة وشجونها، إلّا وعجبت من الحس السليم الذي يتحلّون به. فهم يعبرون بمجمل بسيطة لا تعقيد فيها ولا تفاصيل، ويؤيدون ما يذهبون اليه من آراء وقناعات بأمثال ومحطات كلام شائعة، وربما لجأوا إلى كلمات هي في معجم الإنسان المهذب نافرة لا تليق بالفرد المتمدن المتأنق المتفرنج.

إن الشعب بسدّأجته - المنسوبة اليه خطلاً - وفطرته وتلقائيته يقبض على عُقّ الحقائق، وتراه يلخص الموقف السياسي على تعقيده بعبارة سريعة مكثفة، هي أشبه في الأدب بما أطلق على أسلوب ابن المقفّع «السهل الممتنع». أبناء الشعب هم أبناء الحياة، وبالتالي فهم يعاركون حقائقها ويتلمسونها بالبداهة.

ما رأيت مثقفاً يتحدث في حلقة من الناس الطيبين إلّا ووقفت جاسوساً على قاموسه. إنهم ينظرون اليه عبّر هالة من التبجيل والانشراح والغبطة، والمتقف يخفي غروره وشعبيته، وربما يتكك سبحة عقيقة ويتطاول منه العنق - يا سبحان من وزع الأعناق وقدر الأرزاق! حتى إذا ما فاه أخونا إياه بما تيسر من عيون الكلام تدحرجت على لسانه مفردات منتقاة مجلوة لا غبار عليها كما نقول، وعوض أن يوضح الموقف السياسي أو الاجتماعي الذي يريد التعبير عنه يزيده غموضاً ويفرقه في زحمة من الكلمات المجلوبة الحسان التي أغدقتها علينا الحضارة - كما عبّر عن هذا المعنى أبو الطيّب، طيّب الله ثراه.

وهنا تنبدي المسؤولية الكبيرة للمقاة على عاتق الصحافة. إن وسائل الإعلام أضحت اليوم ذات مفعول ليس من المغالاة نعته بالسحري. ولهذا

نجد الصهيونية تسعى أول ما تسعى إلى الإمساك بهذه الوسائط من صحافة وتلفزيون وسينما ومسرح، فتتغلغل على نحو أخطبوطي في إعلام البلد الذي تجد مجالاً رحباً لمد نفوذها في شرايينه. إن إسرائيل قائمة على الاستيطان القسري، شأن دولة جنوب أفريقيا حالياً، ونظير روديسيا والجزائر سابقاً. ولكن هل يمكنك إقناع شخص أوروبي أو أميركي بهذه الحقيقة بيسر، حتى ولو كان مثقفاً واشتراكياً بالإضافة إلى ذلك؟ إن دماغه قد غسلته وسائل الإعلام بلا هوادة.

وإذا ما أتيت على مسؤولية الصحافة في عملية تثقيف الشعب دون غيرها من الوسائط الإعلامية، فذلك لشيوعها الضخم في عصرنا، ولأنها الزاد اليومي الذي لا غنى لي عنه. وقد «أزدرده» صباحاً أو مساءً أو ما بينها، على أي «ألتهم» الصحيفة حقاً. فإني أقرأها بالتتابع، فلا أغفل عنواناً مهماً صغراً، ولا إعلاناً إلا إذا تكرر! وبعض الصحف تحسن الظن بجيوب قرائها والجاهلير، في هذه الأيام الكاوية، فتقدم لهم في بعض زواياها صحن اليوم «جوانح الدجاج مع العطر». وعند قراءة الوصفة المجانية على القارئ ألا تفوته أن هذه الأكلة تحتاج إلى قليل من السّتر! أما إذا كان الخبر السياسي في الجريدة مهماً لا ينسئ عنوانه بمخبره فد «أكرج» في تفاصيله. هناك صفحتان أمرّ بهما بغير توقف هما الاقتصاد والرياضة، أما ما عداهما فأنا بالمرصاد لكل شاردة وخطرة.

ولست معنياً بهذه المطالعة لأني أحفل بالسياسة، فقد زهدت فيها وبمناصبها منذ يفاعني. شغفت بالعلم، وأبعدتني مثالياتي عن واقعية السياسة وضرورتها المكيفيّة. على أي مواطن من هذا العالم، وكل ما يدور فيه يعنيني بهذا المقدار أو ذاك. وبالتالي فليس كالصحافة رافد جيّاش للتعرف على نبض العصر الذي نحياه. أحد أصدقائي من الكتاب عدو للجرائد لا يقرّبها كأنها الفحشاء والمنكر. والطريف أنه يكتب القصة، ولكني ألاحظ أن قصصه متخلفة عن إيقاع الزمن، زمننا. وفي ظني أن أحد أسباب هذا التخلف يكمن في إغفاله فائدة الصحافة. إن بلزك كان يعود إلى ملفات الشرطة لاستلهاهم أحداث بعض رواياته. وفي الصحافة

نعثر على مرآة كبرى تعكس يومياً ما يموج في دنيانا المتعبة من هموم وطرائف وجرائم ومجازر بحق الأفراد والشعوب. لا حاجة لصديقي القاص أن يتخيل، فحياتنا الراهنة أخصب بأحداثها المتلاحقة من أي خيال نصطنعه وأغرب!

إن عهدي بالكتابة في الصحافة ليس جديداً، فقد كنت فتى صغيراً عندما أدركتني هذه الحرفة المحببة إلى نفسي. وما زلت أذكر، والضحك يملأني ويأخذ عليّ الآن أقطاري، أي كنت أكتب القطعة وأبعث بها إلى إحدى الصحف، ثم أنتظر نشر هذه «المعلقة» الثرية في الأيام التالية. ولم يكن جيبى المتواضع يحتمل شراء الجريدة إذا لم تكن «مزدانة» بمأثرتي. لهذا كنت أتناول الصحيفة من الولد البائع، فإذا لم تشمل على تحفتي أعدتها إليه متعللاً بأن قانون الإيجارات الجديد لم يصدر في الصحيفة بعد بحيث تستحق مني شراء لها! وحدث ذات مرة أن واجهني الولد بأن القانون الجديد موجود فعلاً، فرددت عليه بسرعة وبثقة العارف: هذا ليس النص الكامل! سقى الله تلك الأيام، فقد عرفنا فيها معدن الفرح البريء وجمال الساعات الطلق.

وأعود إلى صحيفتي التي أطالها كل يوم. أما الناحية الإخبارية فليست مدار بحث الآن، وإنما همّ مني منصرف إلى التعليقات والمقالات وبعض الدراسات، والسياسية منها والفكرية بشكل خاص. إذا شئنا أن تكون الصحيفة مدرسة تثقيفية فينبغي أن نراعي أفهام الناس. لا يعني ذلك البتة التبسيط وهبوط المستوى وغيرهما من التعابير الهروية. المقصود هو الاعتماد عن الخدلة وعن أساليب المثقفين المحشوة بالألصاف الذهنية والمفردات الأجنبية وباللف والدوران والغموض. وهذه كلها عيوب فادحة عندما تعتور المعالجات الفكرية، لأن الفكر يحتاج إلى الوضوح وإلا غدا تضليلاً! فالكتابة في الصحافة ليست ترفاً، وإنما هي هنا واسطة تربوية عظيمة لو أحسنّا استغلالها عادت على جماهير شعبنا بالخير والفائدة والتنوير الحقيقي.

قديماً كانت الصحافة العربية تلجأ أحياناً إلى ضليع يصصح لغتها

وبراقب المفقوات النحوية، وبخاصة أنها كانت لذاك العهد منبراً للأدب،
إذ إن معظم نتائج عصر النهضة قد ظهر أولاً على صفحات الجرائد.
واليوم بتنا بحاجة ماسة، خصوصاً في الصحافة التقديمية المنحى، إلى
مراقب من نوع جديد يضبط لغة بعض المثقفين - الصحافيين، فلا تصير
شؤون السياسة والفكر تحت أقلامهم طلاس ومتاهات!

(١٩٨١)

والعود أحمد

لستُ من الكسالى لكي أعلن حقي المشروع في الكسل، فإن الشهر المنصرم الذي غابت إبانته زاويتي عن قُرَائِها كان في الحقيقة «إجازة» عمل، فالعمل بالنسبة لي أجل العبادات وأمتعها. لست أقول هذا تمدحاً بنفسي، وإنما هو نمط عيش أمارسه ومبدأ حياة آخذ به وأرتضيه. ولست للرافضين لائئاً ولا للمتقاعسين مسفهاً فكلّ في هذه الدنيا حر وطيّق من حيث الطبيعة، وكلّ في نهاية المطاف يحصد ما زرع ويقطف ما يذر ويتمتع بما جنت يده ويحاسبُ على ما اقترف أصغراه.

ويخالجني في هذه العودة شعورٌ منّ يفيء إلى بيته بعد غياب ويرتاد مكتبه بعد هجران، فهو كلّفٌ بالحائظ يلمسه والكرسيّ يتحسسه والكتب والملفات والأوراق يقلّبها بلا هدف معيّن سوى أن يعقد الصلة الحميمة مجدداً بينه وبين هذه الأشياء التي عرفها وعرفته وألفها وألفته فنانعتدت صداقة صامته بينها. وهو يخال أحياناً أن هذه الكتب التي قرأها ونقّب فيها وجرى قلمه تحت سطورها والهوامش منها لم تعد هي الكتب نفسها الشائعة في الأسواق، وإنما قد استقامت لها شخصية مميّزة وشاع له منها ودّ خالص وصلة دافئة. ولست طبعاً من بذل بالصّحْب الكتاب مؤثراً صداقة الورق على صداقة القلوب والبشر، ولكن صداقة الحرف المشع المطبوع هي أيضاً من أبقى الصداقات وأرسخها وأبرّتها بالناس والعباد.

وخلال هذا الغياب القسري كنت أفكر أحياناً بهذه النافذة على البحر وأكاد أهمّ بها وهمّ بي، ولكن ظروف العمل المتتابع المتدفق كانت تشدني دون تحقيق رغبتى الملحاح وتقذف بي بعيداً عن زاويتي الأثيرة. وقد تساءلت بيني وبين نفسي غير مرة: إذا كان هذا الغياب العابر الذي لا يدّ

لي فيه، وقد اضطررتني اليه حاجة دراسية ورحلة علمية لا أملك لها دفعاً أو تأجيلاً، قد أمضيت قليلاً وترك في قرارة روحي بعضاً من شعور بالغربة، فما بال هؤلاء الذين يغيبون نهائياً عن الأوطان ومراتع الصبا والخيال، كيف يطيقون هذا الغياب، سواء برضاهم أو كانوا محمولين عليه؟ إن هذا الغياب « المؤبد » لو حدث وكنت من ضحاياه، لكان كفيفاً، بلا مغالة أو تهويل، يقتلي ربما وهدر دمي وخنق الآمال الوردية التي تجول في صدري متنتهة.

لهذا ندرك كيف أن القرآن الكريم قرّن مبارحة الديار بالقتل، وأن الكثيرين آثروا القتل على الخروج من الديار: « ولو أنما كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو أخرجوا من دياركم، ما فعلوه إلا قليل منهم ». فمبارحة الأوطان ليست مقتصرة على الأماكن التي نتردد عليها والإخوان الذين نبوح لهم بمكنونتنا الغاليات، هناك، وراء البشر وخلف الحجر، تاريخ وغبطة وتكوين ولغة وأعماق أين السيل إلى لقائها أو تجددها؟ ليس الأمر قناعة أو قعوداً عن طلب الأفضل ونشدان الأرقى، وإلا لوجب على الناس قاطبة أن يهاجروا إلى البلاد السكندrinaقية الشهيرة بمستواها المادي وتحررها الاجتماعي. ثم، لعمري، هؤلاء اللبنانيون الذين قذفت بهم الحرب الأهلية المشؤومة إلى مشارق الأرض ومغاربها يلتمسون عيشاً وراحة بال، أتراهم حقاً حققوا منبتهم وفازوا بالهدوء الحقيقي والهناء الروحية؟ ليس صعباً على اللبناني عموماً، وهو المشبع بالدينامية وروح المبادرة والتجارة، أن يصيب العيش الحني هناك وهنالكَ من بلاد المعمورة، ولكن أتى له تحصيل السعادة الروحية الضائعة التي استشعرها في ربوع الوطن على علاقته والتي يؤرق طيفها عليه لياليه وينقص عيشه المادي المترف ربما هناك، فيقول في دخيلة نفسه وهو مسهد يأكله الحنين: هكذا كُتب علينا أن نحيا بعيداً عن جنة الوطن، واضيحتاه ذهب العمر هباءً وزوبعة من غبار وأوهام خادعة!

الوطن، ولو كان قطعة من الرمال والصحارى، فهو الموثل والملاذ ومعقد الرجاء ومستقر الأمان ومستودع الطموحات وحديقة العمر

الخضراء . جاء في كتاب « المحاسن والأضداد » لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : « قيل لأعرابي : كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظله ؟ فقال : وهل العيش إلا ذاك ؟ يمشي أحدنا ميلاً فيرفض عرقاً كأنه الجمّان ، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساه وتقبل الرياح من كل جانب فكانه في إيوان كسرى ! »

الغربة قاسية موجعة ، وصعب عليّ وشنيع أن أجد نفسي ذات يوم أحياً ساهماً كالقنّقد أنطلع حزيناً إلى سهوب أستراليا ، أو أتجمّد وقد صرعني الصقيع الروحي وأنا أدفع الأيام الرمادية في البلد - الفريرز كندا ! وتحضرني حادثة أرتعش كلما تذكرتها ، فهي من النوع التشيخوفي (نسبة إلى أنطون تشيخوف كاتب الأعرّ). وقد رواها لي صديق ، أي أنها حقيقية - ولماذا هذا التأكيد ، ألم يقل بلزاك للكتاب ، على ما أعتقد وتسعفي الذاكرة : تخيلوا قدر ما استطعتم فالحياة أغنى ! فحوى هذه الحادثة أن امرأة أرمنية تعيش وحيدة في الولايات المتحدة ، وهي من قرط الوحشة واللوعة تخرج أحياناً إلى باب بيتها وتقرع الجرس لتوهم نفسها أن أحداً ما يسأل عنها !

وبعد ، فكل البلاد التي لا ينطق ترابها بلغة المتنبي وأبي العلاء ، ولا تتكلم أرضها بلسان مارون عبّود وطه حسين ، هي بلاد عزيزة إلى حين وجيلة إلى حين ، فالعود دائماً إلى صدر الوطن أحد وأسلم وأعزّ وأجل . وللمناسبة فالعود إلى قيّء هذه الزاوية هو أشبه بالجلوس تحت شجرة يعرّش عليها اللّباب ، فهلمّوا لمجلس في ظلالها كما تعودنا منذ حين صبيحة كل أحد .

(١٩٨٤)

أدباء الحبر وأدباء الحياة

هو شاعر نظام تسمعه فلا تؤخذ به وإنما أنت كالسامع لأنه هو شارع لا يفتر في الهجوم على أذنك خدشاً ولذوقك نهشاً. وتقرأه لأن دواوينه بين يديك مطروحة وعلى سطح مكتبك مهداة « ملقوحة »، فتفتحها في ساعة فراغ وسأم لثلا تكون في وفائك متهاً أو في أحكامك جائراً متجنباً. ومن منا لا تأخذه عاطفة جموح ذات مرة أو حُكم يكشف الزمن اهتزازه أو النسبية في صوابه، إلا أن يكون مكابراً وللصدق مجافياً.

ولكن شاعرنا أسلم لي عبر لقاء مفتاح سرّه. قال، منشرح الصدر، إنه عندما يكون على أهبة الولادة - فصاحبنا ولله الحمد هو الحبلان والنطاسي المشرف على ولادة القصيدة معاً - فهو خلال فترة « اليَقَاس » يطالع في المعجم! إنه لا يفعل ذلك بحثاً عن اسم ميمون لمولودته الغراء وإنما لينشّق عبر الكلمات وشذا التراكيب وليحصل ذخيرة، ثم يهجم عليه « الطلق » ويكون « المخاض »! لهذا فأنت لا تملك بعد مطالعة هنا وهناك في صفحات دواوينه - وهو بطبعه ولود - سوى أن تنفض من أصابعك هذا المخاض اللغوي العائر، ولا تملك إلا أن تقول: أفٍ له يسيل من أعطافه حبر المعاجم!

فلا هو شاعر مُطَرَّب مرقّص، كما كان القدامى يعبّرون، ولا هو لغوي يقوم من ألسنتنا أودّها. ساعه الله، أين نضعه وفي أيّ طبقة من الشعراء نصنّفه؟ ولنا من هواة التصنيف، ولكن الموضوع مخرج، والكاتب الكاتب لا يدفعك إلى هذا الصنيع وإنما أنت مبتلٍ به عندما تقع على أدب بارد يقول ولا يُفصح، فهو ورق مهدور وحبر مضاع. ورحم الله الفاخوري عمر فقد أسمى أمثال هؤلاء الأدباء بأنهم رجال من حبر

وورق لا من لحم ودم . ورحم الله أستاذنا في الترجمة خلال مرحلة التعليم الثانوي ، هذا البدين القصير الذي توفاه الله في موطنه تونس قبل يوم واحد من إحالته على المعاش ، فلقد كان يسدي البنا النصيحة بأن نقرأ في المعجم لنعثر بين طياته على المصطلحات السديدة والتعابير الملائمة ولنغني لغويًا . ولكنه لم يوجهنا إلى ذلك لنغدو ، لا سمح الله ، شعراء !

فاللغة أداة جمالية ذات حُسْن أَخَاذ ، ولكنها مهما بلغت من الأناقة والجودة والبراعة تظل في نهاية المطاف أداة للتعبير عن مضامين أيًا كانت ، وإلا انقلبت إلى نوع من مُتَحَف الشمع . تصوّر نفسك ممسكاً بقلم ومكبّاً على أفق ورق أبيض مفتوح الذراعين لتلقي أفكارك وأشجائك ، ثم تصوّر نفسك مقفر الروح من المعاني والهموم ، فإذا عساك عندها تخطّ واللغة مع ذلك حاضرة في خاطرك وثرورتها مضمرة في نفسك ؟ يمكنك عندها أن تسكر ، دون أن تُسكر الآخرين ، بألفاظ لها رنين وعذوبة ، غير أنها في مجموعها لا تعبّر عن تجربة شعورية ومعاناة ، وإنما هي طنين إلى انقضاء آن صدوره . وأدبنا في لبنان به داء دفين منذ مطالع القرن هو التّعبد للكلمات في طقوسية نكاد ننفرد بها عربياً ، وعلة ذلك « الغنى » اللغوي كما نعتقد هو الفقر الثقافي .

عندما يكون صدر الأديب مفعماً بالمعاني فإن اللغة تنقاد له في طواعية ، بدليل أن بعض المفكرين لم يكونوا مؤهلين لأن يصبحوا كتاباً بالمعنى المهني للكلمة ، غير أن تمرّسهم بالتعبير عن آرائهم أسلس لهم عِنان اللغة وأعانهم على تجويد صياغة فكرهم . فمتانة التعبير عندهم متأتية أيضاً من متانة التفكير . ولا أدري إذا كان ما نعانیه في أدبنا اللبناني من نقص مدقع في القِصة والرواية مرده إلى هذا الداء اللغوي أو التّعبد الكلامي ، مما يتنافى على طول الخط مع تِقْنِيَةِ الْقِصَص . وأنت إذا طالعت قصة طه حسين « الحب الضائع » تخرج منها وكأنّ بك شعوراً خفياً لتنفّض عن ثيابك نثار الكلمات . فطه صاحب الأسلوب الساحر الآسر ، ولكن القصة الاجتماعية تحتاج إلى لغتها الخاصة أولاً ، ثم هي نتاج تجربة كاتب خاض الحياة وبلا أحداثها وخطوبها وتفاصيلها ، ولم تكن ظروف طه الخاصة

تسمح له بهذا الخوض ، ولهذا جاءت قصته وكأنها مونولوج لغويّ طويل .
لذا فإن التهمة التي راجت في أوساطنا لوقت مضى وانقضى من أن
بعض الأدباء هم من سكّان الأبراج العاجية مغلوطة أصلاً ، ومنبعها
سياسي وليست ذات جذر أدبي . فليس هناك كاتب ، مهما كان هواه
الاجتماعي ، خارج دورة الحياة ومعترك البشر . قد تتفق آراؤه مع
طموحات هذه الطبقة أو تلك ، لكنه من سوق الحياة يغترف ، سواء كان
أبطاله نبلاء أرسقراطيين أو بورجوازيين طامحين أو عمالاً كادحين .
وتختلف النظرة بين كاتب وآخر إلى كل طبقة من هذه الشرائح الاجتماعية
تاريخياً وفكرياً ، لكن هذا لا يمنع أن مادة أدب الكتاب الكبار جيعاً
مستقاة من مجّريّات المجتمع وشواغله وأزماته . ولهذا فإن هوى « بلزاك »
الملكي لم يخل بينه وبين كتابة أجمل ملحمة للمجتمع البورجوازي وهو في
معترك خضّاته . وشاء بعض النقاد التقدميين أن يرموا نجيب محفوظ
بـ « طوبى » البورجوازية الصغيرة ، لكنّ من قرأ ثلاثيته وأعماله المتدفقة
أيقن أن المحاكمة السياسية للأعمال الأدبية تجني أحياناً على الإبداع جنابة
منكرة .

وعندما كان نيكيتا خروشوف في قمة مجده ألقى تقريراً في الكتاب
والمبدعين عن الأدب والفن وكأنه يتعامل مع مزارعي الشمندر والبطاطا .
فكان أن وثبت إحدى المؤسسات غير البريئة في بيروت على هذا التقرير
وأصدرته في كتاب ، لا تبغي من ذلك طبعاً نشر الأفكار الاشتراكية
وإنما لثمسك بهذه الوثيقة دليل إدانة وتشهير بمن يسيئون إلى الإبداع
ويستسونه على نحو مبتذل . هل معنى ذلك أن الإبداع خارج عن السياسة ،
لا فكل ما في الحياة يتضمن بشكل أو بآخر معنى سياسياً أي معنى
اجتماعياً . ولكن ما يصحّ في حقّ لا يجوز في غيره ، وإلا فلماذا اختلفت
القوانين ونمايزات بين ميدان وآخر ؟

كل الكتاب يسبحون في بحر الحياة كالأسماك ، ومن يخرج من هذا
المحيط الزاخر فهو ملاق نهاية تميسة لا محالة ، إذ سوف يبتني عندها من
الكلمات هياكله المتداعية . سيخرج من لُجّ الحياة ليلج المعاجم يستولدها

قصائده وتأملاته وعواطفه اللغوية. ولغتنا العربية أشبه بالرافعة العملاقة، لكنها تغدو بين جماعة الخبز والورق والمعاجم ناووساً للأدب الذي يرشح بالعطن والرطوبة والأنفاس المطفأة والأهواء المتخشبة. إن الأدب الذي ساد مصر المغلولة خلال الرّدة السياسية في السنوات الأخيرة، هو في معظمه من هذا القبيل، وذلك لأن المعاني الكبرى غدت سجيناً، فملاً الساحة حلة القواميس والنفوس الصفراء!

إن إلهام الكاتب المبدع يكمن في مجتمعه. وكلما كان هذا المجتمع يجيش بالقضايا الجلييلة والأهداف النبيلة كلما حث ذلك كله الكاتب على أن يغرف ويرتوي وينفعل وينجذب. ولنا نقص من هذا أن نطالب الكاتب بأدب يُدعى تارة ثورياً وطوراً نضالياً، إلى ما هناك من مصطلحات حماسية. فالذين يعتقدون بسذاجة أن الأدب الثوري هو وحده الأدب الحق إنما ينفخون في أبواق من قصب. الأدب أجل تعبير عن أسرار الحياة. وقد يأتي هذا التعبير نشيداً صارخاً، أو غزلاً هامساً، أو وقائع مذهلة، أو خيالاً شارداً، أو روحاً مكتئبة؛ ولكنه في شتى تجلياته يخاطب الإنسان فينا في صحوه وتعبه، في اندفاعه وإحباطه ثورته وخيبته، في وساوسه وأفراحه، في كل ما يتعاقب عليه سلباً وإيجاباً. وبعد فليس مكسيم غوركي ثورياً أكثر من شكسبير أو تشيخوف أو أراغون، إذا صح أن هذا المقياس يصلح لمحاكمة الإبداع الأدبي.

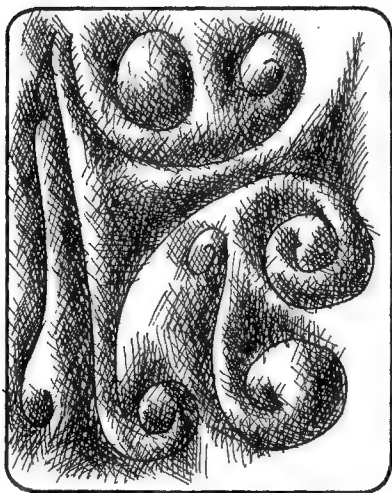
إن الأدب الثوري في معناه الصائب هو الذي يتحدث عن ملحمة الإنسان، هذا الذي يشق قلب المستحيل ويُخرج من كبد العتات نوراً. ولكن هذه الملحمة الاجتماعية ليست وردية على الدوام، فكم فيها عند وقوفنا على التفاصيل من خيانت وانتكاسات، من ارتداد وتقهقر، من أجراس الفرح وصيحات الانتصار. وتجربة الحياة هي المنجم الذي يقبس منه الكاتب الخفامات لأعماله. وكلما كان المجتمع حافلاً أمد الكاتب بالرؤى والأشكال وأغنى تجربته الحياتية. وويل للكاتب من المجتمع المشوه الممزق الهوية الطعين، شأن مجتمعتنا اللبناني، فهو كفيل بتقزيم بعض

الأدباء لأنه يجهض مواهبهم ويقولها في أغلال الفتوية والطائفية، كما أن قضايا هذا المجتمع المتخلفة عن روح العصر تقعد بالأدباء الواعدين وتطفئ اللهب بين ضلوعهم.

ولا أدل على ما ذهبنا إليه أن كبار أدباء لبنان الذين عرفوا شهرة قومية هم الذين ترعرعت عموماً مواهبهم خارج الوطن، وذلك في مصر أو المهجر، لأن هذا الإطار الجديد حلهم إلى الهواء الطلق ومعانقة القضايا الأرحب، شأن مطران، أبو ماضي، فرح أنطون، وغيرهم. وكَم من أديب لبناني جنى عليه هذا الوطن بسبب ضيق الأفق الذي يسعى بعضهم أن يحولوه إليه وإلى أن يمسخوا قضيتهم الوطنية والاجتماعية. ورثيف خوري هو في نظرنا مثال ساطع على أديب ذي مقياس رحب، لكن مجتمعه بشيئته الطائفية وهويته المهزوزة قوقع إمكاناته ولم يكن الصدر الواسع الذي يحتضن طموحاته. في حين أن الأدباء العرب من غير اللبنانيين الذي هجروا وطنهم لدوافع شتى كانت الهجرة قاضية على سيرتهم الأدبية، لأنهم فقدوا النبع الثر الذي منه يرتوون. وأحد زكي أبو شادي الذي ترك مصر إلى الولايات المتحدة مثال على هذا الضرب من الهجرة القاسية التي تقتلع الكاتب من جذوره الأصلية وترمي به في غيب الصّياح.

(١٩٨٢)

ذکریاتِ حنون



الصقيع

« وجهه » هو وجهه الرأي في اعتزامه الهجرة إلى كندا. لقد تَلِفَتْ جلته العصبية من صراع أهل البيت الوطني الذي لا منطق له ولا مسوغ، فهو مسرح اللامعقول في بلد كل ما يجري على ساحته يبدو عجائبياً! وهناك في كندا دولة حقيقية سوف تحتضن أشباله الثلاثة وتأخذ بيدهم في مراقبي العلم ومراتب المعرفة مها علت. أما العلم ههنا فبورسته في تصاعد خفيف، مما قد يقعد الأب العطوف عن النهوض بأعبائه ذات عام قادم إذا ما استمرت أقساط بعض الجامعات في ازدياد وتضاعف. فالعلم في بلد التجارة هذا سلعة تنطبق عليها قوانين السوق، ولا رحمة للمقترين مالياً. و « وجهه » يبحث عن نافذة الأمل في حاضرننا فلا يثر لها على أثر، ويصطدم بمجدار أصم كتيب أعمى! وهو لا يهاجر سعياً وراء الأموال إذ من قطع حيطان الأربعين أو كاد لا يبحث في القارات البعيدة عن ثروة، وإنما مبتغاه عيشة كريمة آمنة ومستقبل لأولاده بعيداً عن فوْهة بركان تحسبه مطفأً وما هو بمطفأ، ومفاجآت مذهلة تأتيك من حيث تحتسب وتفقد عليك من حيث لم تحتسب أبداً!

أما الزوجة « ماجدة » المرحه الضحوك المقبلة على الحياة فهي تغدو رويداً رويداً كندية قبل أن تطأ قدماها أرض الاغتراب وتُمنع بموجب التأشيرة الميمونة البطاقات والعهود والحقوق! هي تعرف أن كندا باردة باردة، ولكن ما تخشاه وشرع يحفر أسمى في صدرها هو الصقيع الروحي. فالبرودة العالية تحت الصفر تكافحها بالتدفئة المستمرة التي لا مفرّ منها معظم فصول العام، ولكن من أين تأتي بالدفع لقلبها هناك في سهول الصقيع المزمّن والغربة القاتلة؟ ليس في هاتيك البلاد أمّ تحجّ إليها كل

يوم منجذبة متولّية بحنان وجهها الوديع اللهوف. ليس في بلاد الثلج
الدهريّ أخت تهتف لها تسأل عن صحة الأولاد وأخبار البيت. ليس
هناك أخ يدخل زائراً. ولا ابنة خالة تتصل مشوقة إلى لقاء. ولا صديقة
تستفسر وتبرع تحملها الخفقات... فالمستقبل الموعود هو الثلج والصقيع
والوحدة والحنين والوطن المضاع والأيام الرمادية والشمس الغائبة. هو
الدموع المالحه يلعقها الإنسان في كآبة، والقلب الذي تكلّست حوله
الثلوج!

وتتطلع إلى الزميلة خبّرى وقد بهت بحباها وتسربت إلى أسرارها
خيوط الحزن غير المألوف عندها. وكأنها تسألني المشورة وتستجد
برأيي: يا أختاه لم ألبس في حياتي مُسَوِّحَ الوعاط ولست معترفاً أن
أفعل. ولست بعدُ سوى بشر يألم لما تألمين ويفرح مغرداً لما يفرح له
الناس. ولن أقول لك في لهجة مأساوية تستوحي مواقف يوسف وهي على
المرشح في صوته العريض الأجنس المرتعش: «يا بنتي، يا ماجده، حياة
الإنسان من حياة عياله، وحياة عياله من حياة وطنه!» حيا الله راسبتين
الخشبة العربية، ولكن دوره المدوّي أضحى قطعة من التاريخ المنطوي،
بدليل أن يوسف وهي عندما وفد على بერთ وقدم، لعشر سنوات خلت
أو أكثر، في سينما أمير (قبل ان تتحول إلى مكتبة ودار نشر) مسرحياته
الشهيرة التي جلبت له أكاليل المجد. بدت هذه الأعمال غثة لا تنطوي
سوى على جلبه وعباط!

وبعدُ، فالهجرة مرض لبناني أصيل قد أملتته الظروف الصعبة التي
عصفت بأهلنا في القرن الماضي والراهن، لكن عدواه انتشرت ولا دولة
تبالي عندنا، وجاءت الحرب الأهلية ذات الأرواح السبع لتجعل من هذه
العدوى جرباً مستشرياً. والإنسان العادي يهاجر عندما يجد نفسه على
الحديدة والأرض وقد سُدّت في وجهه المنافذ، فيُقدم على هذه الخطوة
مكراً سعيّاً وراء لقمة العيش الهاربة. ولا أعُدّث عن المهاجر طلباً للثروة
الطائلة، فهو في جموع المهاجرين استثناء وليس قاعدة. وعندما يجوع المرء
في وطنه يكفر بالقيّم ويخرج منه هائلاً. والدليل القريب أن المصري لم

يعرف الهجرة في تاريخه، برغم الفقر العريق المستوطن على ضفاف النيل، ولكن السنوات الأخيرة حلت له إلى ذلك الغلاء الفاحش والمجاعة الضمنية، فإذا بملايين المصريين ينتشرون الآن في أصقاع الوطن العربي الكبير. والمثال اليافى مائل أمام أنظارنا، فلا ينزل المرء مرقاً على وجه هذه الأرض إلا ويعثر فيه على صناعي يكذب لتحصيل الرزق. وفي هذه الدنيا ملايين من المهاجرين الأتراك واليونان والطلبان، هجروا أوطانهم بحثاً عن وطن جديد. وظل الوطن الأصلي عند الأوائل جرحاً غائراً وأغنية دامعة وحنيناً مرهفاً كحد السيف، في حين أن الأبناء وأبناء الأبناء تبنا الوطن الجديد وغدا وطن الآباء والأجداد مجرد ذكرى بعيدة يلقها الضباب.

وأنت، يا ماجدة، لست تفتقدين العيش الهانئ في ربوع الوطن، فوجبه يعمل وأنت تعملين، والأولاد يتعلمون. أما مستقبل تعليمهم فالأبواب ليست موصدة تماماً بالنسبة إلى الطلبة الفالحين. وها أن كلية للطب جديدة قد فتحت أبوابها هذا العام في بيروت، ولا ندرى ما تحمل الأيام من جديد. وها هو العالم الاشتراكي على وسعه يتخرج فيه كل عام آلاف الاختصاصيين الأكفاء. وها هي المؤسسات المختلفة ترصد المنح. لست أعرض لوحة وردية، ولكن أي غنم أن يسعى أحدنا إلى كندا لتأمين التعليم الجامعي لأولاده، في حين أن هذا الرحيل قد يكون سبباً في ضياع أبنائه منه! بمعنى أنهم سيصبرون لا محالة، وما زالوا الآن عبياناً، كنديين قلباً وقالباً ولساناً. فهذه ضريبة الهجرة القاسية، وهذه هي الغربة الحقيقية!

أما الأمن والفلتان والقذائف والسيارات المفخخة فهو قدر غير رحيم قد ابتلينا به، وربما صنعناه بأيدينا. ولسنا أول شعب يعاني، فعلى درب الآلام الدامي سارت شعوب وعانت بما لا يقاس أضعافاً مضاعفة لما نستشعره ونقاسيه. كانت الحرب العالمية الثانية كتلة عذاب على مدى القارة الأوروبية من أعالي الأورال حتى شواطئ المانش. والملحمة الفيتنامية أقرب إلى الخيال في حروب التحرير. والمأساة الكمبودية تكاد لا تصدق. وشعوب أميركا اللاتينية تحارب المحال وتنتصر برغم النكسات

ومحاولات الإبادة.

لماذا هذا الشرح الطويل الذي قارب تخوم الوعظ الذي أبينته فككت أقم
في أشراكه ! باختصار : أنا لن أهاجر ، لن أهاجر ، لن أهاجر . وكيف أفعل
وأحد مستندات دائرة الهجرة الكندية المعروضة على الراغبين في الرحيل
يقول في كلمات قاطعة لا تحتاج إلى مزيد من القول : « إعلم أن الهجرة
اقتلاع » !

(١٩٨٢)

ماذا نرى لأطفالنا؟

الأطفال في لبنان الحرب الأهلية المديدة فتحوا عيونهم على الدمار والمهلع وتكتكة الرصاص وضجيج المدافع وسخط الراجات. وتكرّر الأعوام ويُورق غصن الأطفال، وننسى في حديثنا معهم أنهم أبصروا النور في عاصمة لم يشاهدوها، لسبب بسيط وفاجع وهو أنها غدت خطّاماً مشوّهة وهاكل مفزعة وبُقعة تجول فيها الأشباح منذ تسع سنوات، أي أن عمر خرابها من عمر أجسادهم الطريّة. ساحة الدّباس، ساحة الشهداء، الصّيفي، باب إدريس، شوارع فوش، اللّنبّي، الخويّك، البورصة القديمة، المالية القديمة، وغيرها وغيرها من الأماكن لا تعني في ذاكرة أطفالنا شيئاً. ونحن مع هذا نتحدث عن الأمس القريب القريب الذي يغدو مع توالي الأيام والآلام وكأنه آتٍ من البعيد البعيد.

ولن يخطر في بالنا أن نحكي لِفَلَد أكبادنا عن بيروت بعد الانتداب الفرنسي عندما كانت السّرايا العثمانية ما زالت قائمة في الطرف الشمالي لساحة البرّج، قبل أن تصبح، ولك أن تتصور مدى التخلف، مرّاباً للسيارات الذاهبة إلى ضيّته وإنطلياس! وكانت الساحة، قبل أن يغزوها النصب الإيطالي المجلوب وكأنه طعنة لشهدائنا وليس تكريماً، حديقة جميلة يستريح فيها الناس ويلهون، وفي المناسبات الوطنية تحتشد ليلاً بالمواطنين يشاهدون الأسهم النارية وهي تنطلق وتنهمر عليهم بهجة وزينة. والكلام على الترموي في بيروت الأمس مفرح ومسلّ لأطفالنا، ولكن من أين لهم أن يدركوه وقد قُلِع في غير حق أو منطلق قبل أن يَفِدُوا مُكرهين على هذه الدنيا. فلقد كان هناك خط للترموي ينطلق من قرن الشباك ويصل إلى رأس بيروت مروراً بساحة الشهداء والجامعة الأميركية، وكان

نمّن البطاقة خسة قروش. وكان هناك خط آخر بين الجرج والدّوره ويدفع الراكب فيه خسة قروش إذا شاء الوصول فقط إلى ساحة الشهداء، مروراً بالسّور الذي كان يحتلّ ساحته في ما مضى بناء كبير يعلوه القرميد هو سوق «الهال» (وهذا اصطلاح فرنسي الأصل). ومن أراد متابعة البكة من ساحة الشهداء حتى الدّوره فعليه أن يدفع خسة قروش إضافية. هذه التعريفة هي للمقاعد الخشبية، وفي وسط الحافلة مقاعد منجدة تتضاعف فيها التعريفة لأنها «بريمو». والحافلة التي تصل الحرج كانت، في سبيل أن تعود من حيث أنت، تسلك شارع مستشفى المقاصد ثم تنعطف يساراً عند أول طريق ضيق يؤدي بها قرب المدخل الرئيس لمدرسة بيت الأطفال. وكان هناك ليلاً، عند آخر هذا الطريق الضيق، دكان على اليسار يضع صاحبه على الرصيف نارجيلة طهازية مزدانة بأضواء «النيون»!

أما لماذا نأسف لذهاب الترمواي فلأنه وسيلة نقل لا تفنى، وعوضاً اقتلعه كان الأجدد بالسلطة المصونة أن توسّع الشوارع التي يسلكها الترمواي، بحيث تصبح هذه الوسيلة للنقل قدر الإمكان عند جانب الشارع لا وسطه. وكان الحل المناسب هو المزيد من الطرقات الجديدة، والمزيد من الجسور، والمزيد من المعابر تحت الأرض. وتخيل لو أن الترمواي ما زال يجري على خطوطه القديمة وامتد إلى الضواحي وإلى المطار وإلى جانب الأوتوسترادات المستحدثة، ألم يكن، بالإضافة إلى غيره من وسائل النقل، يؤدي الخدمات الجمعة؟ ولكن كيف لا يُلغونه وهو الأبدى بمجديده وصنّعه، وإخال أنه كان بلجيكيّ المورد، فكيف تم الصفقات والعمولات وهو الحي الباقي؟ وأول أوتوبيسات وردت إلى بيروت دبّ فيها الحرّم سريعاً، نتيجة إهمال الصيانة على الأرجح، بحيث كان من المألوف أن تراها معطلة هنا وهناك. وهكذا بدل أن تؤمّن النقل عرقلته! ثم تحولت، بحمد الحرب الأهلية، إلى متاريس. أما الأوتوبيسات التي تلتها فقد كانت هدية درجة ثانية من الحكومة الفرنسية، لأن هذه الباصات الكبيرة سبق لها و «كرجت» في شوارع العاصمة الفرنسية، وكانت ما

تزال تحتفظ على جباهها عندنا بأسماء المحطات الباريسية. وبالتالي فهي هدية مستعملة غير يكر، ويعلم الله أين صارت بعدها ! ثم اشترينا مجدداً أوتوبيسات جميلة وأطلت علينا منذ حين، واختفت مع شيوخ الرصاص والمدافع، على أمل العودة عندما يخيم الهدوء ويستأنف الوطن مسيرته. قل إن شاء الله.

ماذا نروي عن عالم يكاد يندثر، ولم يبقَ منه سوى نثفٍ في الذاكرة المرهقة نتعلل بها، وهي تطفو أحياناً من لاوعينا حيث تترتب. ولكن نحن الكبار لنا زادنا من اللقطات واللفتات، وحبل الذكريات ما برح يشدنا بنجين وحنو إلى زوايا مدينة محترقة لفحتها حرب بشعة داعة. ما زلنا عبر الذاكرة والصور المتبقية نتسلق درج الأميركان الحجري الذي كان يربط قديماً ما يُسمّى اليوم ساحة رياض الصلح بزقاق البلاط. وأسواق سرسق وأبي النصر والطويلة ما زلنا نجول فيها، ويجلو لنا أن نقف عند نهاية سوق إياس نشرب الجلاب أو نلتهم القطائف عند البركة. ومن سوق الجوخ نهبط السلم الطويل الذي يُفضي بنا إلى خان أنطون بك. أما أطفالنا فماذا في ذاكرتهم غير النار والخوف؟ ماذا في أعماقهم التي تتحدد مصائرهم غير أحاديث القتل عند حاجز يتفحص الهوية ويدقق ليس في رقم السجل، ولا ليتحقق في ما إذا كان صاحب التذكرة متأهلاً أم أعزب، وإنما نظر المسلح الغضوب يذهب تَوّاً إلى خانة المذهب!

وفي علم النفس أن القطاع اللاواعي يتحدد في مرحلة الطفولة، وله تأثير خطير على مجمل حياة الإنسان بعدها، إذ اللاوعي هو التّواة الأساسية في البُعد الذاتي عند المرء. واضطراب اللاوعي يؤدي إلى الاضطراب النفسي، ومن أين لك بالطبيب الذي يفوص مستكشفاً حقيقة هذا اللغز الذي هو اللاوعي، ليتمكن عندها من مداواة ما قد تكابده الجملة العصبية عندما تهتز؟ هذا مع العلم أن الدارسين يقولون إن ديناميّة الحياة اللاواعية عند إنسان بلداننا المتخلفة ما زالت حقلأ متروكاً لم يُكبَّ عليه الباحثون لاستخراج خصائصه وتحديد بُنيته. وقد جرت منذ فترة قصيرة تجربة استوقفتني كثيراً بدلالاتها. إذ إن طلاب معهد الفنون الجميلة في الجامعة

اللبنانية، الفرع الأول، قد قاموا بنشاط ترفيهي لمئات الأطفال المهجرين الذين تركوا الضاحية الجنوبية مع عائلاتهم ولجأوا إلى الأم الخنون، بيروت الغربية، هرباً من القصف الفتاك المريع. وكان من جملة هذا النشاط الترفيهي الفني أن قرأ طلاب الفنون على الأطفال قصصاً لا صلة لها بالحرب بناتاً، ثم طلبوا من الأطفال، الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثلاث والاثنتي عشرة سنة، أن يرسموا على الورق الانطباعات التي خلقتها هذه القصص في نفوسهم. فكانت حصيلة ذلك أن الأطفال رسموا «نيوجرمي» المشؤمة، وطائرات حربية ترمي القنابل وطائرات مروحية، وصواريخ، وأعلاماً ومنها العلم الأمريكي ممزقاً نصفين، ومنازل مظلمة، ومسجداً، وسجناً تشع من داخله الشمس...

إن إقدام الأطفال على رسم الحرب أمر طبيعي جداً، إذ هم في أوقات السلم ينجحون إلى «إشعال» الحرب وتمثيلها ورسمها، فكيف بهم الحال والحرب لم تعد تمثيلية وإنما هي حقيقة مخيفة تخض أفئدتهم؟ وهذا الواقع الراهن يوضح كم يهبط على أعماق اللاوعي عند أطفالنا من عنف و«وعي» حربي وقساوة. وحربي رجال التربية في مقبل أيامنا، هذا إذا هدأت الأحوال واستقام الوضع وانتصر العقل والحس السليم، أن يُعتَوَ جذياً بهذا اللاوعي الذي تكون لدى أطفالنا، والذي يظل في الغالب خفياً غامضاً غير مرئي، ولكنه وفق علم النفس يقرر المصائر ويخطّ أفق المستقبل لأجيالنا الصاعدة.

يزفر الكبار أنفاساً حترى قائلين إن هذه الحرب الأهلية ذات السبع أرواح قد قضت على آمال براءة كانت تحيش بها صدورهم، وإن شرعهم المصقّف بات أبيض ذابلاً، وترنحت مشاريع وتهافت، وأضحى مجرد البقاء هو المطمح والهوى. وأطفالنا كوتهم الحرب أيضاً واعتصرت أيامهم الزاهية، هذا إذا لم تقذف بهم إلى لجة الجحيم. وفي قاع اللاوعي لدى أطفالنا تعوم الألفام وتتصب المتاريس وتنطلق المدافع بدوي صامت! وينبغي أن تبدل الحال، إذ لا شيء يعلو في الأهمية والقداسة على هؤلاء الأطفال، لأن حياة الوطن من حياتهم ومستقبله

معقود على سلامة نفوس هذه البراعم الطالعة في وجه الشمس. وما دامت « الصيغة » هي الصيغة عينها ، و « الميثاق » هو الميثاق إياه. وما دام الدستور والأعراف والمواضعات هي إياها ، وما دام هذا « الكرنفال » الذي يتشكل منه لبنان العتيق المتهرى ، الطائفي القروسطي ينبخ بثقله على المطامح والأرواح ، فلا قيامة عندها لهذا البلد من دوامة الحروب الأهلية المتجددة. فستحوا المجال للعلمانية ، وافتحوا الشبابيك على مصراعيها للبنان الجديد الديمقراطي ، وإلا فإن الأجيال النامية ستختزن في لاوعيها رُكاماً من البشاعات والأزمات والتشنجات هي أدهى وأرعب من اللوحة المخبوءة عند أوسكار وابلد في روايته الشهيرة « صورة دوريان جراي » !
(١٩٨٤)

«نوستالجيا»

في ظلّ وارثٍ لشجرة خضراء حراء تمدّ أذرعاً متشابكة فوق رأسي
جلستُ زَهْقَانِ شَقِيانَ خَيْرَانِ أَقْصَقُصِ الأُمِّ كَلَاعِقِ المِبْرَدِ وأستشعر
الكآبة إذ كيف يفوتني مرض العصر ولا أكون من حُطَّابِهِ، وقديماً تلذذ
الرومنطليقيون الحزن وتفننوا في تعاطيه جَرَعَاتٍ وصَرَعَاتٍ. كنت، على
حد تعبير المصريين، «عبيطاً» خَبَلَهُ الحزن والحزن واليأس «عقلو يبحاكيه
شمال يمين»، يكرّ عليّ ابني الصغير بأسئلته الجميلة المتفحصة المتسائلة
المكتشفة فما أملك لها جواباً غير مزيد من البلبلة، وأتذكر عندها قول
«هاسكال» عن الإنسان: «إنه عبارة عن قصة جوفاء... ولكنه قصة
عاقلة». ولم أكن في حالتي غير قصة مهتزة تختزن الإحباط والتشوش
والفراغ والاضطراب. كنت بحاجة إلى الصمت وإلى صديق - ولأن
تكون سديقة أوفى بالمرّام وللقلب أشرح - يداوي جراحي بالكلام
وحكايا الأيام. ترياقي «كلمة بتحنن» وليس «كلمة بتجنن»، وحديث
هامس هو أشبه بصمت النجوم ووشوشة الجدول الجاري. كنت نظير
الزجاج مكتوب على جلدي إحترس فهو حساس، «ما تلقني بتشقيني»،
وإياك واللجاجة والخصام إذ «كَبُرَ الدقُّ يِفْكَ اللحام».

وفي حالة رمادية كهذه تدهم المرء «نوستالجيا»، حنين إلى الأيام
الخوالي، فيستعيد الذكريات نَتْفاً تخطر على باله، صوراً تنبثق في خياله
فجأة صافية وكأنها المياہ تنبجس على حين غيرة من باطن الأرض،
فيتساءل دَهْشاً: أي عقل باطن راكّم هذه النُتْفِ والصور عُقُوداً من الزمن
ثم بعثها على شاشة الحاضر، شأن الكومبيوتر تضغط عليه بزرّ قَبِيرِزٍ لك
معطيات احتفظت بها لوقت مضى في تلافيفه. ولكن أين الإصبع الضاغط

في مجال العقل الباطن، وأيّ عملية توافق ومزامنة تم تلقائياً وآلياً بين الشخص المتأمل وماضيه المحفوظ؟! وهكذا انتالت على خاطري تلك «الأوستن» السوداء الصغيرة تتخطر وتقف. تسير وتتعطل، تدرج يوماً وتتصب زماً قائمة حزينة وحيدة غبراء. وكان يملكها أحد أصدقاء «شلتنا» في مرحلة التعليم الثانوي وكنا ندعوها «الأميرة». ونذكر من كان في الخمسينيات يملك سيارة بين الطلاب الثانويين بلة الجامعيين، حتى الأساتذة فإنهم بغالبيتهم العظمى كانوا يمشون على الأقدام طلباً للمدرسة ويستقلون الترام - لا رحم الله من تسبب بزواله - في تنقلاتهم.

ولم تكن «أميرتنا» شأن سيارة «الفورد أبو دعه» سهلة مطواعة، حتى أن بعض سائقيها العموميين كانوا يذكرون بعد زمن من انقراضها أنها كانت تسير أحياناً بالماء إذا عز البنزين! وهكذا كنا نحتاج لتموين أميرتنا بالوقود نشتريه من المحطات، ولكن من أين لنا المال وجيوبنا المتواضعة تكاد تكون نظيفة مطهرة مؤمنة، إذ لم يكن من مألوف عادتنا أن نرهق أهلنا بالمصروفات الخاصة ولو كان المال موفوراً لديهم. وإن أنس لا أنس مشهد صديقنا صاحب الأوستن نجتمع له القروش فيمضي وهو يمسك بقنينة فارغة إلى المحطة يملأها بحجة أنها لضرورات البيت، ونحن نراقبه عن بُعد والضحك يسري في صدورنا والنكات بنت ساعتها تنهمر من أفواهنا. حتى إذا ما عاد صاحبنا يكاد يتعثر بخطاه صبيبا القنينة في بطن الأميرة وانطلقنا نترنح في طرقات مدينتنا على متن سيارة شبه سكرى، بسبب التهرؤ والحاجة إلى التصليح، وبسبب من قيادة صديقنا فهو يتعلمها بنا! ولكن من يبالي والبهجة تضج في داخل الأميرة، والتعليقات الساخرة تتوالى، والحياة آمال عراض وغرق في العلم وفرح غامر بل ورقص أحياناً.

وكان من دأب صاحبنا إياه أن يحتفل بعيد ميلاده وأن يختلق المناسبات لإقامة الحفلات، فأبى فرصة ذهبية عندما نُمضي بعد ظهر راقصاً نهرج فيه ونمرج برقصة «الرومبا» و«الباسا دويليه» ونختال متجولين على أنغام «الغالس» ونتشي بإيقاع «التانغو» الفنان الساحر. حتى

إذا ما لاح المساء وقاربت الحفلة إلى انقضاء ، تسلفت موسيقى « السلو »
المتباطئة تعمر أفئدتنا بالحبور وأجسادنا بالدفء ونتزود بوقود روحيّ
يكاد يكفيننا شهراً ، سَمَراً بِمَجَرِّيات الحفلة واستذكّاراً لطرائفها .
خصوصاً أن أحد أفراد عُصْبَتنا كان يَختلط عليه الأمر بين أنواع الرقص ،
ولم يكن يكاد يُحسن سوى نقل خطوات التانغو ، ولهذا فكما أن العرب
البدو كانوا يحسبون البضائع كلها صابوناً ، فإن زميلنا كان يخوض الساحة
راقصاً الأنغام كلها على وقع خطوات التانغو ! سَقياً لتلك الأيام البريئة
الباسمة فهي ، شأن عمرنا المتفلّت من أيدينا ، لن تعود ، إذ هل يعود النهر
عن جريانه أو تعاود أمواجه السيل كَرّة أخرى ؟

(١٩٨٤)

زمن الحلاب والصّر

هناك تعريفات كثيرة للإنسان، ولا عجب ففيه انطوى السر الأكبر وسيظل لغزاً محيراً للعقول والأجيال. على أن ما يحضرني هنا رأي الكاتب الإنكليزي « هزلت » الذي عرّف الإنسان بأنه حيوان ضاحك. شكراً مضاعفاً لهذا السكوني، وخصوصاً أن بني قومه يشتهرون بالتحفظ والضحك المقتضب المدروس. ولولا هذه النعمة التي منحها الطبيعة للإنسان لمات يأساً وقهراً في ظروف جمّة تمرّ به أو يمرّ بها. وبالله عليكم هذا الشعب اللبناني الموضوع على الصليب منذ ما يتّفق على عقْد من الزمن كيف كانت ستؤول به الأحوال لولا طاقة المقاومة العجيبة التي يخزنها بين ضلوعه، ومن ضمن هذا الرصيد القتال يطفو الضحك، الضحك بأنواعه. وربّ سائل: وهل لمادة الضحك ضروب وأنواع؟ هل ستفلسفون الضحك فتقصون حتى على هذه البقية الباقية لنا من متاع الدنيا الذي قضت الحرب الأهلية على معظمه فكدنا نمسي عُراة؟

صبرك يا أخي، سواء كنت قابلاً في زاوية من البيت تحسبها محصنة أو لا تُذاد في ركن من ملجأ عامر ببضائع التجار المكذبة لساعة العسرة المربحة، وقديماً قالوا عند «اختراع» الطبقات: مصائب قوم عند قوم فوائد! لن تجدني ساعياً إلى «برغسون» لأفسد عليك صفاء هذه النعمة التي لم يهددها سيف الغلاء ولم تغدُ بعدُ سلعة نادرة للمتاجرة شأن البنزين والخبز وغيرهما من المواد التي قد تستجد، مادام أن الحرب على ما يبدو مديدة، ولا يُحمد على مكروهه سواء. وفي الزمن الغابر كره عنترة، رحمات الله عليه، الحلاب والصّر، ولو أنه بُعث في

أيامنا لربما استدعى الأمر منه برهة تأمل وتفكر. فالجلاب، يا سيد
الفرسان، على قدم وساق، ونحن الشعب المكرسُ ندفع من جيوبنا، إذا
كان هناك بعدُ جيوب، الأتاوى والغلاوات والسمرات. وانقلبت
الآية، فصار الجلاب والصرّ علامة فوز وتخمة وصعود على أنقاض
المواطنين، ولم يعد شارة على العبودية التي تأبّتها نفس عنتره وانتفضت
عليها.

وبعدُ، فالضحك، من غير تنظير، هو ببساطة أنواع وفنون، وسنقف
في هذه العجالة عند ضروب ثلاثة منه. هناك الضحك المنبعث من
غرابة ما تسمع، فهو ضحك أقرب إلى الخفوت، تستعيده في ذاكرتك
فتضحك، كما نقول، في سرّك. هو ضحك تبتعثه مثل أفعال «أخوت
شانيه»، يقول الرأي فيبدو خليطاً من الحكمة والبلاهة. ولكي لا نبقى
في سياق من كلام بكلام، في حين أن الموضوع ضحك بضحك،
فنضرب مثلين يجولان ما نقصد بالضحك الذي نقترح تسميته
بالغرائبي.

في المرحلة ما بين أواخر تموز وأوائل آب يمر العراق في كل عام
بطقس لاهب خائق يدعونه «البَحَار». ووفد على العراق والي عثماني
في العهد الماضي، فتمللم كثيراً من هذا الطقس وسأل معاونيه عن هذه
البلية وما الداعي إليها؟ فأجابوه أن هذا الحر يساعد على إنضاج البلح.
فكان أن أمر الوالي، للخلاص من هذه الورطة المناخية، بقطع أشجار
النخيل كلها! من هذا القبيل أيضاً ما يُحكى عن مدبّر «سرمد»، وهي
قرية في الشمال من سوريا. إذ أدخل ثور هناك رأسه في جرة مفتوحة
النم، وعندما حاول الناس إخراج قرنيه منها لم يُفلحوا. فهرعوا إلى
مدبّر قريتهم يستنجدونه الرأي والمشورة، فأمر بقطع عنق الثور. وعندما
أذعنوا لنصيحته وجدوا أن رأس الثور ما برح عالقاً بالجرة. فكان أن
أشار عليهم المدبّر الحكيم عندها بكسر الجرة!

في هاتين الحكایتين المتقدمتين وفي أمثالهما يختمى ضحك غرائبي
دفين يقترب أحياناً من دائرة اللامعقول. وهناك ضحك آخر قوامه

السخرية والاستهزاء والاستهتار بمن توجه إليه واستغباؤه، وذلك نظير القصة التي نروى عن بشار، وكان كما هو معروف ضريراً، إذ كان في مجلس الخليفة فسأله أحد أقرباء الخليفة عن مهنته، فأجابه بشار بما عُرف عنه من سخرية لازعة وبديهة متوقّدة: «أُنقب للؤلؤ!» إنه الضحك المستخف كما يحلو لنا أن ندعوه، وقد يشتمل على شيء من اللُزم أو التعالي أو الغرور.

وهناك أخيراً في الأنواع الثلاثة التي رغبتنا في تبينها الضحك الناعم. أو هكذا تبدى لنا تسميته. ومصدر نعمته أنه غير جارح يتوسل التورية والغمز، ويكشف عن نفس مرحة طيبة ودودة تقابل «اللطش» بمثله في غير تعمد للأذى أو التحقير. ولعل هذه الحكاية القابعة في جمعنا، والعائدة إلى أيام المتصرفية، توضح مغزى الضحك الناعم. كان نجم الأسود ونعوم لبكي عضوين في مجلس الإدارة زمن المتصرف أو هانئ باشا في مطلع القرن الحالي، وكانا هابطين بعدداً على حمارين. فقال الأول للآخر: ركب الحمار «لبكي»! فأجابه الثاني: خصوصاً إذا كان «أسود»!

ولعل أحدهم سيستاء من كتابتنا هذه عن الضحك ويقول ما قاله أحد الحضور عندما ألقينا لسنوات قريبة محاضرة عن الانقلاب العباسي: أهذا أوان كلام كهذا ونحن على ما نحن من محنة وظروف مأساوية ودمع ودم وبكاء؟ في المحاضرة أجبت المتعجب باقتضاب، موضحاً له أن الناس كانوا يتزوجون في عز الحرب العالمية وفواجعها وذلك لأن الحياة تستمر من حسن حظ البشر. وأغنانني عن الإطالة أن الحاضرين تكفّلوا بالرد عليه واستنكار موقفه فألقموه حجراً. أما ردّي ههنا على المساء المفترض فهو أن التفاتي إلى ما يدور بين ظهْرَانِنَا من مأسا ومهازل يدعوني عندها إلى الكتابة عن الضحك الأسود. إذ، ناشدتك الله، هل تعتقد أن الطوائف عندها المتقاتلة تارة بعضها ضد بعضها مسوقة بحقد فظيع، والمتناحرة طوراً في ما بينها مدفوعة بحقد أفلح، هي مؤهلة لبناء لبنان الجديد «الخلنج»؟ مزحة كبيرة ربما! لا تقل:

كيف ؟ بل قل : وفقها الله ورعاها .

ولعلي أفعل خيراً بأن أختتم مقالي هذا مع القارئ بنبذة متفائلة تجعل بعض أسنانه تبدو عند اقترار ثغره ، وهي أسنان قد تحتاج في الغالب إلى مداواة وإصلاح وحشو وتركيب جور ، ولكن كيف السبيل إلى شفاؤها وأطبّاء الأسنان في بلدنا المنكود قد فتحوا إلى جانب معدّاتهم مكتباً للمحاسبة تخرج منه الفواتير بالآلاف المؤلفة ؟ ! أ هم أطباء ، أم معتمدو قبض ، أم منتسبون إلى شركة المقاولين المتحدين ، أم أعضاء في نادي الجلاب والمر ؟ على أي حال فأمرنا معهم في غير هذه الفسحة . في الختام نذكر ، إيفاء منا للنبرة الضاحكة ، أن الفنان الفقيد ميشال المير كان « يكرج » في كلامه بالفرنسية نظراً إلى تعليمه ونشأته ، أما العربية فكانت ميسورة لديه في الكلام الدارج ، حتى إذا ما دار الحديث حول الأفكار ، وكان ميشال مضطراً إلى التعبير عنها في العربية ، فهو عندها يعتمد إلى ترجمة آرائه من صيغتها الفرنسية كما تدور في خَلْده إلى ما يتيسر له من تعابير عربية . وذات مرة أراد ترجمة (point de vue) ، فأسفحته قريحته بالتعبير التالي : بخش نظر ! رحم الله و ملهم » .

(١٩٨٥)

الدعشوقة

طالعتني في الحى فلم أعرفها إلا بعد لأى، فعهدي بها ذات شعر
منسدل ناعم أسود حريري، من غير أن ألمسه طبعاً، وإنما هو النظر الشره
قد يقوم مقام اليد! ولهذا اعتبر بعض الفقهاء النظر من الكبائر، وجاء في
الحديث: «فالعين زناها النظر»، قصد النظر المحرم الذي يوغل. وقال
النبي لعلني وقد سأله عن النظر: «إن لك الأول وليست لك الأخرى». وذلك
أن النظرة الأولى لا جناح على الإنسان فيها لأنها عفوية، في حين
أن النظرة الأخرى فيها ما فيها!

المهم أن الدعشوقة التي رأيته - وعذراً لهذا التعبير، وهو يعني المرأة
القصيرة، فقد تسلل إلى النص بغير إرادة منا. ففي الكتابة ننتقي الأفكار،
لكننا لسنا دوماً على بينة من الأثواب التي سوف ترتديها. لنعد إلى أمر
الدعشوقة فإنها، بخلاف ما كنت أعرفها وأعهد من شعرها الأسود، قد
أسبح بقدرة الأصباغ الحديثة ذا لون جديد. أدام الله للنساء «إيميديا»
و «ولاً» و «كولستون» وغيرها من الماركات، فهي تغطي كثيراً من
العيوب، وتخرج المرأة من تحتها مخلوقة أخرى لها شعر نبذي أو أبيض أو
مخضر أو ما شاءت من الألوان. وقد تكون العملية ذات إشعاع جالي،
وقد تكون مجلبة للغرابة. إذ إن الشعر المعني الجميلة الحى غدا أبيض على
رمادي، بحيث إني لم أتعرف عليها للوهلة الأولى أو النظرة الأولى! وصار
شعرها الأملس على شكل لفائف ودوائر متداخلة، مما ذكرني بتعبير
قرأته عند الكاتب المصري الفكّه «محمد عفيفي»، من أن امرأة كانت
تحمل فوق رأسها شعراً هو أشبه بطبق الكنافة أو الساجيتي!

فكل ما زاد نقصَ وفقّ التعبير الشائع. وفي أيام الطلب بالجامعة كان
لنا زميلة تأتي إلى الحرم - أي حرم الجامعة طبعاً - وهي متبرجة، فكانها

تغدو على ، دانسنغ . حتى الأخلاق ، وهي مطلب كل إنسان فاضل ، إذا ما زادت عن حدّها المستساغ تبدو مصطنعة . وفي الجامعة إياها كان لنا أستاذ ناجح علمياً . وكان بالإضافة إلى ذلك مفرط التهذيب ، بحيث إذا سلمت عليه ينني ظهره فتحشى عندها عليه ! وهذا الأستاذ استهوت السياسة ، وقد قمت بزيارته خلال أحداث ١٩٥٨ ، هذه الأحداث التي يسميها سمكري بمحلة المصيطبة ، خناقه . وأثناء تجوالي في مكتبته العامة بين رفوف المجلدات وقع نظري على مدس بين الكتب والمراجع الجمّة ، فقال لي أستاذي عندها : هذا هو المرجع الملائم هذه الأيام ! وغدا هذا الأستاذ بعدها شخصية مرموقة ، وما زال تحت دائرة الأضواء ، ولا أدري إذا ما كان يفكر حالياً بترشيح نفسه لانتخابات الرئاسة القادمة .

فالمبالغة تبدو « آفة » في كل مجالات الحياة ، شُراً أم خُلُقاً أم زينة أم سلوكاً . وشقيقي « أبو كريم » كان في صغره يروي الحادثة فإذا بها تشمل على مائتين من المهاجرين ! فأغضّ على شفتي السفلى ، فيقول إنه يقصد مائة وخمسين . فأبتسم له بخبث ، فيلوح بيده ويقول إنه لم يعدّهم فرداً فرداً ولكنهم يبلغون المائة طبعاً . وما يزال العدد يتناقص إلى أن يقترب من حدوده المعقولة . وهو لم يكن يفعل ذلك ، في صغره بالطبع ، تهويلاً أو جنّطاً ، فهو والحمد لله محبوب على الطيبة والشهامة ونظافة الكف والوفاء . ولعل طباعه وأرثوذكسيته الصارمة واستقامة رأيه هي التي جعلت منه مهاجراً مستقراً في قارة غير قارتنا ، فأبعدته لزمن مضى عن الوطن الحبيب حيث الأرثوذكسية ليست هي المذهب السائد !

فهذه المبالغة المتقدمة مصدرها البراءة ، ولكن المبالغة المنبعثة عن التفكير تقودنا إلى فن عظيم في عصرنا هو الكاريكاتور . وابن الرومي ، الهجاء الموسوس ، له في هذا الميدان باع موفق . ونحن ما نزال نذكر اللحية الطويلة التي يهجو صاحبها قائلاً له :

ألفها عنك ، يا طويلة ، أو لا فاحتبسها شرارة في السعير
أو فقصر منها ، فحسبك منها نصف شبر علامة التذكير .

(١٩٨٢)

أين إيزيس؟

التقيته فوق الرصيف عند بائع الحقايب، ولم يكن هناك مغرّ من أن يسلم أحدها على الآخر، وخالطني أنه كان محرّجاً، ولكني أخرجته من إخراجهِ سريعاً بأن حَيَّته مهلاً ثم مضيت للتوّ في سبيلي من غير أن أطرح عليه ماذا يفعل ههنا وماذا يتنوي أن يعمل. أنت إن قابلت صديقاً عند «العتيلي» فلن يشرّد ذهنك بالطبع إلى أنه ورد المكان لابتئاع الأدوات الكهربائية، كما أنك إن صادفت أحد معارفك لدى «دبّوس» - وهذا اسم عائلة بيروتية تعاطت مهنة العطارّة في سوق أبي النصر، ثم أضحي اسمها دالاً على المهنة نفسها، وكل يدعي وصلاً بدبّوس وأنه دبّوس الأصلي - فلن تفكر البتّة أنه جاء شاربياً ألبسته الداخلية. وهكذا فبائع الحقايب يأتيه من رام سفراً وليس لغرض آخر. ويكون السفر للسياحة والمتعة، أو لتصرّيف الأعمال، أو أخيراً للهجرة ومبارحة الأوطان. وبما أن صاحبي ليس «بزنس مان» ولم يقرب التجارة في حياته، وبما أن السياحة أضحت لمواطنينا مع الارتفاع الجنوني للأسعار ترفاً لا يُقدّم عليه سوى السوريين جداً وصاحبي ليس من طينتهم، بقي الاحتمال الأخير وهو أنه يعتزم هجرة.

رحم الله الأيام الخوالي ومواسم الصيف البهيجة عندما كانت أسراب المعلمين وخصوصاً المعلمات والصبايا يمارسون السياحة في رحلات منظّمة. وبين رفّ النساء تشاهد الأملة التي تسيح لتتذكر المرحوم، وتقع عينك على العانس المتصاية، وبينها تطالعك الفتاة المقبلة على الحياة ضحكة طليقة وخصرأً مغناجاً. وترى أيضاً الشابة التي تحصنت باليقظة، ولكن العفة خذلتها ففساتها أو كاد قطار الزواج - من أين جاءت هذه

الاستعارة؟ - فهي متلهفة لأن تلتق من الدنيا شيئاً من المتعة والفرحة ما دام أنه لا قطار ركاب يصفر، أخفقت في ظنونها وأتى عوضاً عنه قطار بضائع متناقل «الكرجة» تبعاً. وغالباً ما كان الشبان في هذه الرحلات قلة محاطة بالعيون المتفتحة، ولهذا كانوا يمارسون صيداً من داخل القن! حلاوات فانت، والمحفوظ هو الذي أدرك بعضها، إذ السياحة أصبحت اليوم لأهلنا متعة شبه ممنوعة أكلها غول الغلاء فغدت معه السياحة من نوع العنقاء والخيال الوفي. أحد أصدقائي قال لي مقهقها: « زمطنا » والله بهذه الرحلات التي قمنا بها إلى هنا وهناك خلال السنوات الماضية فكان من نصيبنا أن شاهدنا بعض البلدان. لم يبق للناس في بيروت الكثيرة سوى البصبصة بعضهم على بعض عبّر الشرفات، والدنيا حر، واللباس للنساء بلوزة مزركشة من غير أكمام من فوق، وللرجال بنطلون كاكي من غير أكمام من تحت. وشكراً للراقص الكروي «دييفو مارادونا» وبقية سخرة الطابة فقد أنسوا المواطنين بعض همومهم المزمنة. تصوّر حتى أم نفيسة وأم ميري أضحتا خبيرتين في اللعبة، وأخذتا تتبادلان عبر الشرفات الخلفية مع تحية الصباح الانطباعات حول ماتش البارحة. ومن رأي أم نفيسة أن اللعب كان «مهزوماً»، وتأخذها الحماسة في الكلام فتسقط في الهواء من بين يديها قطعة من غسيلها الذي تضعه على الحبال. في حين تعتقد أم ميري أن الحكّم، يقصف عمره، كان منحازاً وجلفاً، ولو أنها كانت مكانه لاختلّت النتيجة.

أنسانا حديثنا عن السياحة الآفلة والكرة الصاعدة ما كنا فيه من أمر صاحبنا الذي يتهيا في ما يبدو للرحيل عن موطن الأرز المريض، أم يأتكم خبر الغابة في الشمال التي تدهمها الحشرات القاتلة؟ وفي بلاد الناس يحرص الحاكمون على إغداق مواطنهم بالمكسبات ويشجعونهم على زيادة النسل، مقدّمين لهم الامتيازات الاجتماعية، وبالتالي فلا هجرة ولا مهاجرين. حتى الطيور المائية في ليتوانيا السوفياتية استنبت العلماء لها هناك نظام تدفئة في قاع البحيرة، بحيث لا تهاجر إلى سواحل البحر الأبيض

المتوسط مبارحة أعشاشها، ولكي تظل خلال الشتاء في موطنها الأصلي !
هنيئاً لطيور الهم والبط وغيرها فقد حظيت بالاهتمام والمواطنة، ونحن
هنا في لبنان نسمى ليلَ نهارٍ ونتفنن في السعي منذ اثني عشر عاماً لترحيل
سكان بلدنا إلى الخارج ورميهم في حبالل المجهول والضّياع. حتى العاصمة
بيروت صارت بلا وجه ولا هوية ولا كرامة، لكنها لم تكن ذات يوم
غير بعيد لؤلؤة وتاريخاً ومجداً. ويقول لي ناقدٌ أحد أبنائها القدامى وقد
تركها وأصهر إلى عائلة من «جديتا» وقرّ سعيداً هناك في البقاع المضيء :
هذه مدينتي مذ أبصرت النور وأعرف منها كل عطفة كل حجر كل
زاوية، وأجول فيها الآن فأنكر منها كل حائط كل رصيف كل إنسان.
ولهذا أراني أهرب منها غير آسف، بيروت لم تعد مدينتي الغالية التي
عرفتها وعمرّت طويلاً في حِصْنها.

وما يقوله صديقي عن بيروت منبعث عن مرارة تقطر وأسى يهي،
إذ أيّ عاصمة عربية عرفت ما عانتّه زهرة العواصم من عذاب وتقطيع
أوصال وتخريب وتشويه ؟ من الشائع توأمة المدن عبر العالم، ولا أدري إن
كان حصل هذا لبيروت، أو هل هذا الأمر يصحّ بين العواصم أو بينها
وبين المدن الكبرى ؟ سلوا « السردوك » ينبتكم. ولكن إذا فات عاصمتنا
هذا الحال في الماضي فهل في حاضرها من يرضى بها توأمة ووصالاً ؟ إنها
بقية عاصمة منهوبة منهوكة، وأطلال مدينة ضربها إعصار الجهل،
وزمرّدة غافية بين الأوحال والنفايات، وامرأة جميلة تناوب الجميع على
اغتصابها تولول ولا من يسمع وتلطم ولا من يبصر وتعرض ثدييها على
العابرين إذ لم تعد حرة ولا مالكة لأمرها ! أين « إيزيس » تجمع حطام
« بيروت » كما للممت ذات مرة في الوادي المقدّس أشلاء « أوزيريس »
المبعثرة ؟ بالله عليكم دلّوني أين ؟

(١٩٨٦)

عيدك أيها القديس

ركب أحد المثقفين البحر ، وعلى ظهر الزورق سأل التوّقي عن معارفه في الفلك ، فأجاب بالنفي . فقال له المثقف : خسرت ربع عمرك . ثم سألته عن معارفه في الجغرافيا ، فأجاب سلباً . فقال له متعلماً : خسرت الربع الآخر . وهاج البحر وماج وهدد الزورق بالغرق ، فسأل الملاح عندها المثقف : هل تعرف السباحة ؟ فأجاب : لا . فقال له شامتاً : خسرت كل عمرك !

وأخونا « المعلم » الذي نحتفل هذا الشهر دائماً بعيده - كيدت أقول في زلة لسان بذكراه - هو هذا المثقف الذي يدرك المعارف في الفلك والجغرافيا وفي ما شئت من مواد علمية وأدبية يتناوب السنوات على تلقينها لطلابه ، ثم لا يدري بعدها ما يظل منها مترسباً في قعر عقولهم . على أنه للسباحة في بحر الحياة والمال والمصالح والمكاسب جهول ، قد ضيع العمر كله بين أسماء الوصل والنفي والإشارة إذا كان للعربية متعاطياً ، وبين الأحاض والأباريق والأناييق إذا كان للكيمياء مدرساً ، وبين المدة والجزر والخسوف والكسوف إذا كانت الجغرافيا مهوى فؤاده وسوق عيشه ، وبين المعارك والقنا والمدافع والفتوح وصول ويجول بسيف استعاره من خالد بن الوليد أو من جعبة « كوتوزوف » أو خصر « نلسون » !

هو المعلم يقيس ويحسب ويخطط ويهندس ، ثم يخلق في وجوه طلابه يريد ، إذا كان عصبي المزاج ، أن يفترس من لم يفهم منه ! فهو قد شرح وأفاض ، ومن لم يستوعب ما قاله فلعلّه كامنة فيه ، أو لعلّه مستخفّ بجهد الأستاذ مسترسل في شيء من اللهو ، أو ربما أن ادّعاه عدم الفهم ليس سوى وسيلة ليوغر صدر هذا القديس حنقاً وغيظاً ! إن عملية

التعلم لا يدرك جلالها غير الذي يمارسها و « يستشهد » كل يوم لدى إنجازها فعل خلق وإبداع وحث واكتشاف. إن الأستاذ الناجح في عطائه إنما التعلم عنده مخاض وإرهاق. لهذا لا أعجب من أحد الزملاء المحققين في ميدان المهنة عندما يتشكى أمامي ساخراً: هذا العضو في جسمي يكاد يسقط، وذاك الآخر يكاد يتعفن. ثم يستطرد متحدثاً: يذهب الناس إلى بيوتهم ليتخففوا من عبء العمل ويعقدوا حلقات السر. أما أنا فأغدو إليه لأنام! نوم الهنا يا صاحبي، أفاض الله عليك جالاً وكان لك عوناً.

ماذا تراني قائلاً في المعلم، فمن أدركته حرفة التعلم إنما يقامر بجملته العصبية أن تصاب بقليل أو كثير من التوتر والاضطراب، فتمسي جملة ركيكة قلقلة. فالطالب ـ صغيراً كان أم كبيراً ـ هو ممتحن للمعلم الوافد عليه. قبل أن يُقدم المعلم على تبين الخير والشر منه علمياً وخلقياً. وفي هذه العملية من التجاذب بين الطرفين تتكشف شخصية هذا الذي أفاضوا عليه الألقاب تعويضاً وتكريماً وجبراً لحاظه. وكان الشاعر إبراهيم طوقان أدرى بالخال، فردّ على أمير الشعراء شوقي، عندما رفع هذا « المعتر » إلى مرتبة الرسولية، قائلاً:

أقعد، فديتك، هل يكون مبعلاً من كان للنشر الصغير خليلاً
ويكاد يفلقني الأمير بقوله « كاد المعلم أن يكون رسولا »!

في هذا البلد المصاب بعاهات كثيرة شكراً لهذا الغدائي حقيقة لا مجازاً، فإن من لم يسوس ضميره ولم يُصب بأفات الحرب والحال الراهنة يندفق ما يعطيه من قلبه وأعصابه، لأن ميدان التربية يكاد أن يكون، حتى تاريخه، الواحة الظليلة في ركाम من خرائب تعمّ هذا الوطن الطعين المدمى المتفجر. فارفع رأسك يا أخي المعلم، إن التجارات على أنواعها لم تلوث رداءك بعد. ولو تصوّرنا أن التعليم توقفت عجلته نهائياً، في هذا البلد المسكين، لكان معنى ذلك أن أجيالاً من الذئاب وقطعاناً من أبناء آوى تسرح في الطرقات. فالتعليم، على رداء الظروف التي نحيها، هو الترياق لهذه الأجسام الغضة التي تتلمس شمساً لأيامها الرطبة. فبوركت

يا مانح الأمل وقد عزّ، وناثر العِطر في أرواح تسري باحثة عن طريقها .
لن أطيل وقد قال الشاعر : أحلى التحياتِ أخلاها من الكَلِم .
(١٩٨٢)

حيث التفت القلب

مررتُ في « الطريق الجديدة » والتفت القلب من غير استئذان ولا وعيٍ إلى حيث كانت قائمة ثانويةً ذلك الحيّ الشعبي العامر وغدت الآن للحزن والكآبة والفراغ ساحة متربة مديدة مهملةً مستطيلة. فمنذ عام ١٩٤٩ تم افتتاح هذه الثانوية، وكانت المناسبة غراءً بهيجة بحيث كان من خُصّارها رئيس البلاد ورئيس الحكومة. وفي صيف عام ١٩٨٢ المشؤوم وحصار بيروت ضرب الطيران الإسرائيلي صرّح أول ثانوية رسمية للبنين عرفها لبنان المستقل، فهاوت رُكاماً واتحت من الوجود وكأنها لم تكن خلال ثلاثة وثلاثين عاماً مدرسياً متبرأ زاهياً للتعليم الراقى.

الإسرائيليون الأعداء، الأعداء حتى الممات، ضربوا مواقع الإنتاج في بلدنا لغاية لا تخفى، فكيف يوقرون زهرة المدارس وهي موقع للإنتاج الأخطر، إذ ظلت خلال عمرها الريادي خلية ناشطة لأجل عمل يُقدّم عليه الإنسان وهو أن يردّ مناهل العلم ولأجل مهنة يمارسها وهي أن يفتح أذهان التلاميذ الراحين على حقائق الوجود والحياة. فأنّت حين تعلّم تأخذ بيد التلاميذ ذوي العيذان الطرية والعقول المشرعة لاكتشاف المعرفة واختراق المجهول والتطلع إلى الدنيا الواسعة. والعدو التاريخي لشعبنا وأمتنا يبغى ويعمل لأن ينزل أسرى أقبية الجهل والعتات، فالنور يُبْغِرنَا ويفضحه، والعلم يسلّحنا وفيه مَقْتله. والمدرسة معقل وحديقة ونافذة على المستقبل، فكيف يرضى بأن تبقى أول ثانوية في التعليم الرسمي اللبناني شاحخة مختالة بمن خرجت، مزهوة بمن تُعَذِّهم وتُطَلّ معهم على مخططات الأمل وشُرُفات الغد؟

ويئنّ في صدري القلبُ الملهوف. أين الضوضاء التي كانت تنبعث من

الصفوف حيث التلاميذ يحشدون بالمثلث لينخرطوا في تلقي المعرفة، أين غارت واختفت هذه الغُرف التي كانت تحمل فوق أبوابها لوحات رُخامية تنبئ، بأسماء الذين لبوا دعوة جمعية البرّ والإحسان وتبرّعوا ببناء هذه الغرف من جيوبهم الخاصة وذلك ليتيحوا لأبناء الشعب المحرومين من نور الحرف أن يدلّفوا إلى رحاب معهد يمنح بسخاء وكفاءة علماً عصرياً مضيئاً؟ أين هي أصوات عشرات وعشرات الأساتذة، أصحاب الجدارة والامتياز، الذين توالّوا على منابر هذه الثانوية؟ وكان مصدر فخر واعتزاز أن يقول أحدهم إنه مرّ على الطريق الجديدة وعلم أو تعلّم، أعطى أو تلقى، فلقد كانت في الماضي مقياس النجاح والتوفيق والتفوق عبّر الشهادات الرسمية. والأساتذة الذين عاصروها في عهدها الذهبي لمع الكثيرون منهم هنا وهناك في خدمة العلم والوطن، أما تلاميذها بالآلاف فلقد انتشروا نجومًا موزّعة في عوالم الهندسة والطبابة والفن والتعليم الجامعي والثانوي والخدمة العسكرية والأمنية وفي مجالات الحياة كافة.

وكنّت عند إطلائك على مبنى الثانوية تطالعك في أعلى جبهتها الأمامية ساعة، لقد أراد الإسرائيليون إيقافها وتعطيل الزمن والذاكرة في هذه العاصمة العنيدة التي استعصت عليهم كما استعصت على الأنظمة البالية التي وقفت تشهد حصارها متفرجة، وكأن الأمر لا يعنيها، وذلك لأن انتصار بيروت يفضح دائماً بين الماء المالح على المحيط والماء المالح على الخليج أسراً مالكة وقبائل حاكمة ومستبدين وطغاة وسامسة... ولا يداخلنا ريب أن الذين كانوا سعاة وراء تشييد البناء القديم للثانوية سيصلون ذات يوم إلى تشييد بناء جديد سيكون، أو ينبغي أن يكون، أرحب وأضوأ وأكفأ. ولكن ليس عبثاً أن الدول المتقدمة تحرص دائماً على الحفاظ على مؤسساتها القديمة ومراكزها التقليدية.

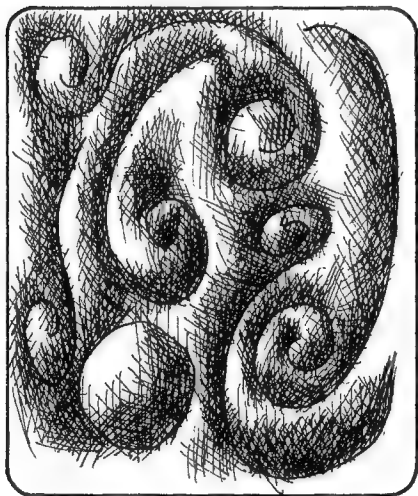
شاهدتُ ذات مرة في موسكو، خلال جادة جميلة، ورشة من العاملين يستعملون بوسائلهم الفنية لجرّ بناء صغير إلى الخلف بحيث يكون على سوية الجادة المستحدثة! وهذا البناء ربما سكنه لزمان مضى هذا الشاعر من مفاخرهم أو ذاك الفنان أو المفكر، فغدا الحفاظ عليه حفاظاً على الذاكرة

والماضي. إذ مَنْ يدخل محراب التاريخ يصبح كل ما يتصل به جليلاً مقدساً. حتى الأبنية القديمة والأسواق والساحات في مدينة تُسرّع نحو الحداثة هي أمانة غالية، لأنها زوايا حيمة تقع في جنباتها الذكريات والأشواق والتطلعات والتقاليد. فالصور واللوحات، مهما كانت نفيسة، لا تَغني عن الأصل، فما يتصل بشريان القلب ليس ما يتصل بشبكة العين! وعندما أرى بناء قديماً جذاباً يتهاوى في بلدنا لتُحل مكانه كُنلة صماء من الإسمنت المسلح الأخرس أشعر أن شيئاً عزيزاً دافئاً دخل في تنشئة ذوقي وكياني وسيرتي يتهاوى في وَهْدَةِ الغبار والسيان، وأقول في نفسي وقد يتعالى صوتي من النقمة على بلد «داشر» فلتان تحكمه عصابات من التجار والوسطاء: لتتكسر أيدي الذين هدموه. أما كان أجدى لنا لو وضعت الدولة يدها عليه، وهي في أمْس الحاجة، فأحالتها، بعد ترميمه والإضافة إليه، دائرة أو معهداً أو كلية، فتكون قد أفادت واستفادت وحفظت للمدينة وجهها الحقيقي الساقط يوماً بعد يوم في بؤرة التجارة الخسيسة والنظام الذي لا ضابط له ولا حارس.

أيتها الثانوية المسحوقة في الطريق الجديدة الصامدة، سيظل قلبي يحن إلى صفوفك الحافلة عَبْرَ طوابقك الثلاثة المرتفعة، وكلما عرّجت طريقي على شارعك المعبود فإذا نسيتُ أن أتطلع فإن قلبي لن يفوته أبداً أن يَنْ ويلتفت. وستبقين وستعودين حيث كنتِ، وبيروت لن تصير أبداً للغزاة مدينة مفتوحة.

(١٩٨٤)

أَسْمَاءُ دَافِعَةٍ



أحمد حاطوم لغوى يتسم بالرحابة

تسألني عن أحد حاطوم لكأنك تلج الجانب الحميم في رواق نفسي ،
فما أحمد إلّا شقيق الروح وعشير أيام الطلب في الجامعة عندما كنا ندفع
الأيام لهواً ومُقاكهة. ولسائل أن يعجب كيف يلتقي العلم واللعب ،
وبالتالي من حقه أن يطرح التسأل : وماذا كنتم تفعلون على مقاعد الدراسة
الجامعية ؟ حنانيك ، يا سيدي المتعجب ، فلو أن الزمن رماك بما رمانا ،
ولا أقف الآن عند كوكبة صغيرة ضمت أفراداً قلائل من الأساتذة ذوي
الضمير والنزاهة ، لأدركت عندها أننا كنا نحيا في رحاب جهل أنسيكلوبيدي
عجيب ! تصوّر على سبيل المثال والطُرفة أننا تخرّجنا في الجامعة
نحمل إجازة في اللغة العربية وآدابها ، وعلى هذا فمن يطالع برّواز شهادتنا
الغراء سيحسب أننا خُصنا في بحار العربية وكِدنا نغرق لولا أن الله سلّم
ورثف. وللحقيقة فنحن لم ندرس شيئاً من فقه اللغة العربية ، وكيف
يتأتى لنا ذلك وأستاذنا الموكل بالأمر كان قد حصّل في حياته فقط بعض
للمهات من علم الكيمياء ! تسألني بعد هذا ماذا كنتم تصنعون في الجامعة ؟
كنا نلتفت إلى عملية التثقيف الذاتي ونحاول الكتابة ونشق طريقنا العلمي
في الحياة ، حتى إذا ما نجونا بأنفسنا من معهد المعلمين العالي درجنا في
سلك التعلم وليس لنا من زاد سوى المحاسة المتّقدة والاستعداد الشخصي
وهذا الشوق الدفين لممارسة فعل التعلم والاكتشاف مع تلامذتنا طلاب
الشهادات ، ويومها لم يكن النجاح في البكالوريا إجبارياً كما انتهى الحال
بهذه الشهادة الشهيدة !

ذهبتُ أنا إلى سلك التعليم الثانوي ، واحتفلُ هذا العام بمرور ربع قرن

على تعاطي هذا العمل وأحار في لون القلاء الذي يغطي هذا اليوبيل ! أما أحد فمضى بعد الجامعة إلى دار المعلمين الابتدائية في بئر حسن ، ثم ارتحل عنها عقب سنوات خمس إلى التفتيش التربوي ، وما زال ، بكل ما يبش في صدره من سدى ووداد وصفاء وطنية ، يزاول وظيفته والقلب منه حدوب ملتان على مستقبل ناشئنا . إن من قرأ كما قرأت معجباً مأخوذاً ، إبان الموسم الفولكلوري الأخير للشهادات الرسمية ، الدراسة القيمة التربوية الاجتماعية الفكرية التي نشرها الأستاذ حاطوم على حلقات في جريدة « النهار » حول ظاهرة الغش في الامتحانات ، عرف عندها أن صديقنا ليس مفتشاً بالمعنى القهري الساذج المألوف لهذا المصطلح ، وإنما هو بحق رجل تربية ومسؤولية وثقافة . وأذكر . ما دام الحديث دار في سدد التخرج في الجامعة ، أن أحد سلم حاطوم المولود في الشياح تقدم في حزيران ١٩٥٩ لنيل شهادة الكفاءة برسالة كان قوامها ترجمة ثلاث دراسات من الفرنسية إلى العربية : الأولى لنيكيتا أليسياف وهي « الدراسات الإسلامية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية من خلال كتاب حديث » وضعه عهدذاك المستشرق ن . أ . سميرنوف . والثانية لهري بريس « الشعر العربي الأندلسي وعلاقاته المحتملة بشعر التروبادور » ، أما الثالثة فتعود إلى محمد حيد الله « الإيلاف ، أو العلاقات الاقتصادية - الدبلوماسية لمكة ما قبل الإسلام » . وهذه الدراسات المنقولة إلى العربية ظلت بين أوراقه ، وما أكثر الأعمال والمشاريع التي تنمو على القرطاس بين يدي أحد ، فهو رجل الأوراق المطوية !

وهذه الأوراق ، المنشورة منها على قلتها والمطوية على وفرتها ، مسكونة بهم رئيس ما ترح يأخذ أحد من أقطاره جيعاً مذكراً الإلف بيننا وحلت ما بين قلوبنا وعقلينا صداقة مترعة بالوفاء مزدانة بالشغف إلى اكتناه المعرفة . إن الطبقي اليومي في لائحة المعرفة لدى أحد حاطوم هو اللغة العربية ، إنه لا يمل من الإقبال على هذا الطبقي والاضطراب بين يدي هذا اللون الواحد . ومن الناس من تضطر إلى سؤالهم عما يشغلهم في هذه الدنيا ، لأن ما يأسرهم لا يطفو على ملامح

كلامهم ومفاصل حديثهم. بيد أن صاحبنا يُغنيك عن البحث والتتقيب ، فهو نهمٌ إلى هذه اللغة الفاتنة حفيّ بنحوها ، ولا يفوتك أن تلاحظ أن هذا الاحتفاء يتسلل إلى مجرى كلامه ، أياً كان الموضوع الذي يدلف إليه ، وأن ذاك النهم يشيع في نسيج عباراته ، حتى في موارد العبث والمزاح التي كنا نتقلب طيها متشّين عهد الطلب في الجامعة ، فإن أحد كان دائماً بشدّة التّكاث إلى لُجّة لغوية ضاحكة !

ومنذ هذا الوقت الباكر صارت اللغة مهوى فؤاد أحد وبوصلة تفكيره ، فسعى إلى بلورة آرائه في هذا الميدان الذي نشكو فيه حالاً يكاد يكون مدقماً في بلدنا ، بخلاف ما كان عليه أسلافنا الكبار من اللبائين الأعلام في خضمّ النهضة . وهكذا نشط أحد حاطوم في التأليف المدرسي ، كما دّيج عند عمرسه بالتعليم الجامعي المحاضرات المشرقة . وفي هذا كله كان يجتهد ويتوجه ، نظير ما فعل لغويّ قدير هو إبراهيم مصطفى في كتابه « إحياء النحو » ، إلى اللغة تواء في أصولها القائمة على الطّبيعية والسّليقة قبل أن قد لها النّحاة العرب بمختلف مدارسهم ، إذ في رأي اللغوي المصري المتقدم بنا ذكره أن النحويين ، شأن الفلاسفة والمتكلمين المسلمين ، فلسفوا النحو فحدّادوا به عن جادة الصواب والجمال والتّلقائية . ومن دأب أحد ، إذا سألتُه عن أمر لغويّ أشكل عليّ أو طرح في ذهني تساؤلات ، أن يجيبني دوماً : ماذا تقول لك سليقتك ، وكيف عاجلت الأمر قبل أن تتمنطق ؟ إذ المنطق داخل متّن العربية ، أو متّن اللسان كما يحلو لأحد أن يعبر ، مع اجتهادات النّحاة . وهذه الاجتهادات ، في نظر سديقنا ، ليست نقطة الختام أو بمنزلة الأشياء التي لا يأتيها باطل ، فهي قابلة للتّعديل وحتى الرّفص ما دامت في أصلها اجتهادات على المتّن أو حواشي تراكمت مع الزمن ، فنحن نستأنس بها من غير أن تُفكّر عقلنا عن التفكير النحويّ المعاصر ، فإن اللغة ليست صنّاً يُعبد بل هي واسطة ناجعة للتعبير الحضاري السليم . ومن هنا أنعمَ لدى أحد حاطوم انفتاحه اللغوي واستعداده للأخذ بكل ما ييسر بلا تعقيد أو ضيق أو قداسة مصطنعة . فاللغة كائن حي ينمو ويتطور ويواكب الجديد ويقفز مع مغامرات العلم ،

وليس من طبع هذا الكائن المتحرك أن ينتظر طويلاً الإذن أو المرسوم أو الدخان الأبيض يطلُّع من جلسات المنظرين في الغرف المغلقة! وكم تعاف نفسي اللغوي الذي إن حدثك في اختصاصه وجرى معك في حلبة الجدل تخال أنه يحسك بعضاً خفية يريد أن ينهال بها عليك أو يبثّ الملع بواسطتها في أوصالك، وتحسب أن دفاعه المقيت عن العربية منبعث من شعوره الزائف بأنه القيم عليها المتفرد بحراستها. هو إلى أن يكون شرطياً أكثر مما هو لغوي يعيش عصره وقضاياه، واللغة دائماً تطرح نفسها تعبيراً عن ازدهار العصر أو أزمتها، فليست هي قضية منفردة قائمة بذاتها وإنما تنبذ في علائق جدلية لا تُحصى بالمعوم الفكرية التي يُناط بها التعبير عنها. ورحابة أحد متآنية في أنه لم يقصّر ثقافته على اللغة وبالتالي عرف، بحسه المرهف ومعرفته المكتسبة ومعاينته الدؤوب لمجريات أمور دنيانا المعقدة، أن اللغة تدبّ في شرايين الحياة كما يصعد الغذاء في عروق الورق والشجر.

(١٩٨٥)

محمد دكروب هذا الجندي غير المجهول

كان يعدو على الشطّ صبيّاً يملأ الموج عينيه ، والمدينة يتلفت إليها قلبه ، وهو بينهما دفقة براءة تندحرج على الرمال حاملة عطر الياسمين المتدلية في بيتهم ودهشة الصبيّ الطالع إلى الدنيا يرسي على كل حبة رمل سؤالاً ويرضع من نهد كل موجة حُلماً شهياً . من شاطئ « صُور » بدأ محمد إبراهيم دكروب رحلة العمر عام ١٩٢٩ ، في النصف من شعبان حسباً تروي أمه الحنون . وكان وهو الصبيّ الصغير يحرص ، حتى في أيام الشتاء ، على أن يخرج في غيش الفجر ، قبل أن يحرك الأذان الشجيّ قلوب البشر والشجر ، وذلك ليلحق بالصلاة يؤديها جماعة وراء السيّد عبد الحسين شرف الدين . وكان في هذا الوقت الساجي يُطلّ أحياناً على القرن بغية تأمين الخبز لدُكان أبيه ، ويعرّج على الدكان عندها ليضيف ماء إلى قدر الفول وليحرّك من تحتها الجمر .

وفي المدرسة الجعفرية شرع محمد يفك الحرف ، كما نقول ، ويأنس به ، وظل منذ ذلك اليوم البعيد للصحة الباكرة بينه وبين الكلمة وفياً . ذلك أن أباه الفقير انتزعه ، رغم محبته الكبيرة له ، من مقاعد الدراسة الابتدائية ما قبل السرتفيكا بصفّين ، ليلحقه به معاوناً في دكانه الصغير . وهكذا امتحن دكروب أولى مهنة وصار ، وهو في نحو العاشرة ، فوّلاً . ولم يُجدِ مع الأب الأمميّ إقناعاً أو توسّلاً ، كما لم تُفلح دموع الصبيّ الشاطر في المدرسة في رد الأب عما اعتزم . لحاجته أولاً إلى ابنه في الدكان ، ولأنه لم يكن يجد نفعاً في الدراسة نفسها ، فأبو خليل ، على أميته ، يروي الشعر وله باع في النوادر بحيث كان مرغوباً فيه ، وكان السيد شرف الدين يستدعيه

إلى مجالسه على شرط أن لا يكون سكران! ونشأ محمد على صورة أبيه في بعض مظاهر مزاجه. وأخصتها هذه الابتسامة التي لا تفارقه والتي تتسع فتغدو قهقهة جذلى.

وتقلب محمد في المهن: فتارة هو سقاء في مشتل زراعي يسعف الفعلة بالماء، وطوراً يبيع الخبز في السوق تصنعه أمه الكادحة أبداً، أو يدور بصينية مملأى بالفلافل مع الخبز والملح. وتارة أخرى كان يكسب في الصباح على صنع شناغيب من جريد النخل يضم فيها الياسمين الماطل في عُقر بيتهم، ويغدو بعد الظهر لبيعه فيبدو عند تفتيحه كالمروحة. وهو ينادي ويصرخ على بضاعته: ياسمين، ياسمين، فلا يقبل على شرائه بخاصة سوى الفقراء والبخارة الذين تعمر بهم مقاهي « صور » عند شط البحر حيث يلعبون، ثم يمسون بهذا الياسمين الفينة بعد الأخرى ويشمون به شراهة لكنهم يودّون أكله!

سوق الحياة جبلت عود الفتى محمد وأرهقته. فهو إبان الحرب كان يبيع الخبز والزيتون للجنود القبارصة، ويغشى الخماترات حيث يعرض على روادها ترمسه الذي كان ينادي عليه: أحلى من اللوز. واضطرته ظروف الحياة، وهو في نحو الخامسة عشرة من العمر، إلى أن يشتغل عامل بناء يملأ قفّته بالحجارة والرمل ثم يحملها على رأسه ناهضاً بها إلى العمال يبنون. ويخبرني الصديق دكروب قائلاً: « ذات يوم من شدة التعب الجسدي صرت أبكي! » وانتهت سلسلة المهن « الحرة » بصاحبنا إلى أن يصير سمكياً في دكان أخيه فأتقن الصنعة، وقوامها يومذاك التعامل بالتك يغدو بين يديه أباريق ومزاريب ونوآسات، وبوابير يصلحها وقداحات.

وفي هذا الدكان كان يفد إليه بعض أصدقائه من طلاب المدرسة الجعفرية، وفي مقعد منه كان يجلس محمد ويقطع وقته العاطل مملأاً بالقراءات التي أدمنها، خصوصاً بعد مبارحة المدرسة. وكان أخوه يتشائم من هذه القراءة في الدكان إذ هي، على حد نظره، تقطع الرزق! وأصبحت المطالعة شغله الشاغل يقرأ أي كتاب يقع بين يديه، وبشكل خاص

روايات الجيب». هذه السلسلة المشهورة في ذاك العهد وكانت تصلنا من عاصمة الثقافة العربية القاهرة. وهذا النهم دفعه إلى قراءة كاملة لبعض آثار عبد الرحمن بدوي، من غير أن يفهم منها شيئاً. ولم يبق في ذهنه من أرسطو ونيتشه وغيرهما إلا قصص حياة هؤلاء المفكرين. المهم كان أن يقرأ وأن يكون على سباق مع الزمن لالتهام الصفحات. وأنت إذا شاهدت في شوارع بيروت منذ ثلاثين سنة إلى اليوم شخصاً يتأبط كتاباً ويُمسك في يده اليمنى مجلة يطالعها وهو يمشي متكأً على نفسه، فغالباً ما يكون هذا الشخص محمد دكروب!

ومن دكان السمكزية أخذ محمد يُطلّ على عالم الكتابة. بدأها في مجلة «المعهد» التي صدرت قرابة عام عن المدرسة الجعفرية، وفي مجلة «العرفان» العتيدة الغنية عن التعريف في التاريخ الجنوبي، وفي جريدة «التلغراف» التي كان يشرف عهدها على القسم الثقافي منها الذي يصدر كل اثنين الأديب اللامع رثيف خوري. واهتم رثيف الحدوب بدكروب الناشئ، ونشر له ذات مرة قصة حرص على أن يضع لها رثيف عنواناً لافتاً جذاباً من الناحية الصحافية وهو: أديب وسمكري! وفي دكان هذا الأديب السمكري في «صور» العتيقة وفد رجل حيي الجسم والطبع، وكان قد ترك العراق عام ١٩٤٩ مكرهاً، ليتعرف على صاحبنا، وكان كلٌّ منهما قد سمع بالآخر بالواسطة، قائلًا له في لهجة بريئة: مرحبا محمد، أنا حسين مروّه.

هذه الحياة «القصصية» عكس جزءاً منها محمد في «الثقافة الوطنية»، المجلة «الشهيدة» التي قامت على أكتاف دكروب من الناحية التحريرية وفي ورشتها تعلّم «كار» الصحافة الثقافية. وإذا أنعتها بالشهادة لأنها صدرت أسبوعية عبر ٥٧ عدداً لمدة عام وبعض عام (صدر العدد الأول بتاريخ ١٩ كانون الأول ١٩٥٢، والعدد الأخير في ١١ شباط ١٩٥٤)، وصارت شهرية خلال الأعوام ٥٤ - ١٩٥٩، وقد انتهت مجلة ثقافية راقية في محتواها وتحريرها، ثم اختفت فجأة من عالم الأدب والفكر بلا مبرر! لعل نجاحها نقص حياة بعض زعماء التقدم المتسلط حينذاك على

الأقلام والعباد ! وها قد وصلتُ الآن إلى الدافع الذي حلني على الكتابة عن محمد دكروب - وهل من الضروري البحث عن دافع للحديث عن صديق قديم ؟ إذ في هذا الشهر تكون مجلة « الطريق » قد أتمت أربعين عاماً على نشأتها، وهذا يوضح أن للثقافة التقدمية والثورية في بلدنا جذوراً ضاربة في تربة هذا الوطن. ووراء هذه الصحافة الواعدة بالشموس جنود أمضوا سنوات عمرهم يسقونها بالكد ويرعون استمراريتها خيط نور وهدي .

ومحمد دكروب هو أحد هؤلاء الجنود البررة بشعبهم والمستقبل . فمذ جاء بيروت عام ١٩٥٠ حتى يومنا هذا، باستثناء سنوات من الغربة القاحلة أمضاها في الخارج، بقي دكروب وراء متراس الحرف يحرر ويكتب . وفي الزمن الماضي كان كاتب بمفرده يهتئ أبواب المجلة على مختلف أنواعها تقريباً، ويجتر افتتاحيتها، وينسق مقالاتها بعد قراءتها والنظر فيها، ويقوم بالعمل الأسود أي تصحيح البروفات، بحيث يمكن القول إن ظهور عدد جديد يكمن وراءه جهد صامت غزير . وكان دكروب خلال حياته ولوقت طويل هذا الكادح الدؤوب، ينهض بعمل تحريريّ ينجزه الآن عادة مجموعة من المحررين ثم لا يلبغون بعدها مستوى أفضل ! وعلى صفحات « الصرخة » و « الطريق » و « الثقافة الوطنية » و « الأخبار » زرع دكروب اسمه في كتابات إبداعية وتحريرية جمة . وبلغ به الأمر أنه كان يكتب لمدة من الزمن عموداً في الصفحة الأولى من جريدة « النداء » عنوانه « لا هوداة » ويتناول فيه أحوال السياسة وشجونها . ساعه الله وعفاه عنه، فلكل حصان كبوة ولكل إنسان هفوة !

ومحمد دكروب دخل الحياة الكتابية قاصّاً ، وأصدر عام ١٩٥٤ مجموعته « الشارع الطويل » عن دار القلم . وكتب بعدها نحو ثمانين قصص ، ثم هجر القصة من غير عودة إليها . وإذا ما سألته تعليلاً لهذا الهجران قال لك : « قصصي لا ترضيني الآن . عُذتي الفنية ليست كافية . أنا مؤمن أنه مهما تتقّف أحدنا لا يصير كاتباً إلا بممارسة الكتابة . ربما لو استمرت لوصلت الى نوع من الإتقان يرضيني » . إن ذكريات الكاتب خلال

طفولته ونشأته الأولى تمده بمدد غريب، وتكاد نصف أعمال غوركي مثلاً تكون مستوحاة من ذكرياته. والأديب في كل ما يخط ينساب جزء من نفسه وهمومه ومشاغله إلى سطورِهِ، مضمرة كانت هذه الشواغل أو عائمة على الورق. ودكروب لم يستغلّ كما يؤمل المادة القصصية الحلوة التي تنطوي عليها حياته الأولى بالذات في مسقط رأسه، فهي غنية بالمادة الأدبية وحافلة بالمفارقات والأحداث. عساه فاعلاً وممارساً.

على أن المنزع القصصي ظل عالقاً به، وقد استعان به في كتابه الرائد المبكر « جذور السنديانة الحمراء » (دار الفارابي ١٩٧٤). على أننا نختلف معه هنا في شرعية هذا المنزع عندما يؤرّخ لنشوء حزب. فإما أن يكون العمل كله « روائياً »، وهذه مهمة صعبة إن لم تكن متعذرة لأسباب مختلفة، لعل أبرزها أن العمل الروائي يحتاج إلى وفرة من الوثائق والمخطوطات والمذكرات، في حين أن دكروب يُمسك شمعة ويتلمس طريقه وسط شحّ في المعلومات. وإما أن يأخذ العمل منحى الأسلوب العلمي والبحث عن الحقائق، وهو ربما ما محتاجه هنا دون غيره. وقد عول عليه دكروب بشكل عام في كتابه، وإن ظلت بُقْع من الحنين القصصي والرغبة في « الحكاية » تراوده هنا وهناك.

وفي العام الماضي أصدر دكروب كتابه الأنيق « الأدب الجديد والثورة ». وتحتوي مقدّمته الرصينة انفتاحاً فكرياً وتطلّعات مستقبلية، في حين أن المقالات والدراسات النقدية المدرجة فيه هي حصيلة لبعض ما نشر قبل سنوات.

يا أبا « لينا » (وعلى القارئ أن ينطق الاسم في لفظه الروسي) تحية الوداد، ولأنت تنشر منه الأريج، ونحن على ترقّب لمطالعة مواليدك الآتيات.

(١٩٨٢)

ميخائيل مسعود أديب من «حقول العزيمة»

ليست الأيام طَوَّعَ إرادتنا نشر عليها فتنقاد ونأمرها فتذعن صاغرة. ولو أنها كذلك لانتحلت أمور كثيرة في مجرى حياتنا، ولكن أليس خضوع الأيام لما نحب ونهوى مطية أيضاً للغرور والبَطَر ومركباً لما هو أدهى؟ المهم أني وقعت منذ أشهر مديدة على كتاب «أمثال وحكايات» لميخائيل مسعود (دار الكتاب اللبناني ١٩٨٠)، وما أن طالعتُه حتى انعقدت صداقة بيني وبين هذا الأثر، برغم أني أجهل مؤلفه ولم يسبق لي أن قرأت له شيئاً. على أني عندما وقعت عيني على صفحة في آخر الكتاب تحوي قائمة بمؤلفات هذا الأديب اللبناني أحست بالذنب واللوم. الذنب لجهلي بأديب من أبناء بلدي يُخرج للناس كتابه السابع في سنوات معدودات، فكيف تغوتني معرفته، وهل أنا معذور في هذا التقصير حيال زميل تجمعي به أنبل مهنة وأجلّ هواية؟ وانتابني اللوم أنهال به على صحافة ثقافية ما زالت تسيّر الصدفة فلا تستشعر واجبتها تجاه كل ما تخرجه المطبعة في لبنان من ثمرات ينبغي أن تكون بها حفيّة وعرفّة.

وقارئ هذه الكلمة سوف يقول: ما دام أن الصحافة مقصرة فلماذا نمتّ أشهراً فوق هذا الكتاب لميخائيل مسعود، من غير أن تحطّ حوله كلمة منصفة؟ ألم تسمع بالآية الكريمة: «أفتأمرون الناس بالمعروف وتنسّون أنفسكم»؟ بلى، ولكن الأيام والظروف لم تكن مطواعاً لما تاقت إليه نفسي. وقد دبتْ ذات مرة مقدّمة نقدية لتناول هذا الكتاب، فإذا بها تتسع وتطول بحيث صارت مقالاً مستقلاً! وإن حقيقي تشهد أنها ظلت حاملة هذا الكتاب تروح به ونحي، وهي تدهش من بقاءه منقوعاً

في زاوية منها . في حين أن كتباً أخرى دخلت إليها ثم خرجت بعد أيام . وبعضها ما أن دخلت حتى أسرع خارجة . ولكن هذا الكتاب استحلى المكوث وألفه مضطراً ، بحيث أصبح عارفاً بما في الحقيقة من عادات . وهو يجاور كتباً ملساء أو ضخمة ، بيضاء مونقة أو عجفاء عموماً . مستطيلة أو سفيرة في حجم الكف أو الجيب ، فلا يبدر منه أي عجب أو تئب ، إذ في عائلة الكتب ، كما في الناس ، أشكال وألوان وأحجام وأهواء ، فليس له أن يتذمر لأن الموضوع عائلي يمت . وهناك هذه اللغائف الأنيقة ، الموضوعية كل صباح ضمن غلاف من النايلون ، تنتفخ به الحقيقة قليلاً . ويحدث أن يكون هذا الغلاف مجاوراً لكتابتنا ظهراً لظهور أو بطناً لبطن أو ظهراً لبطن ، فيحتك الكتاب به بحكم الجوار ويدهش لهذه الأحرف المفردة التي تعلو هذه اللغائف ويحاول أن يفك رموزها بلا جدوى ، فلا هو اشتغل بالآثار ولا سبق له أن أقدم على فك المبروغلفية أو الحميرية . ولم يندُر بقلده أن الأمر أهون من ذلك بكثير ، وأنه لا يتعدى الرمز بحرف « ل » إلى لفافة الخبز العربي باللينة ، و « ج » تذهب إلى الجبنة ، و « م » تعود إلى المربى ! قصارى الأمر أن صاحب هذه اللغائف يسري النظام والترتيب والدقة في دمه ، وبالتالي يُقدم على هذه الرموز السهلة لئلا يبدأ طعامه بالمربى خطأ وينتهي باللينة ، فهو ليس من أهل نابلس مثلاً الذين يشرعون في الطعام بتناول الفواكه !

ولكن الأمور تنحلّ بعد عُسر ، وما أني مكبت على كتاب ميخائيل مسعود أقلّب صفحاته بعد طول انقطاع أملتته الظروف العvisية . ولا يتعدى هدفي من تقليدها غير الإشارة إلى عمل جميل والاحتفال بكتاب ظريف ، إذ إن موضوعه يتعقد حول الأمثال ، وإن لي بها عناية ، أتسقطها من أفواه الناس ، خصوصاً بعض الطاعنين في السن الذين تشكّل عندهم جلاع ثقافة شعبية ما أغناها وأطرفها . وهذه الهواية جعلتني أجمع الأمثال في بعض أوراقتي ، وإني لأراها تتراكم بين يدي وتغتني ، ولا أدري الآن في أي شكل سأقدمها للقارئ ذات يوم . وهذه الهواية القوابة هي التي جعلتني ما أن يقع نظري على كتاب ميخائيل مسعود حتى أتلقفه مغتبطاً

بصيد عُين ولقبة مبهجة .

إن مقدمة هذا الكتاب أوقعتني في حيرة ، لأن صاحبها على ما يبدو لاقى إهمالاً وصدوداً من النقاد - وأين هم في الوطن العربي ؟ ولا نتحدث عن الاستثناءات - فصار ناقماً حبلان ، بحيث إنه لا يتورع عن القول : « فنقاد اليوم - حفظك الله - ككتاب العدول ، يكتبون وصية من يدفع في الوجه الذي يريد » ! وأنا - رعاك الله يا ميخائيل - لست أسعى مع كتابك مسعى الناقد ، ولا أدعي في هذه العجالة أنني أؤدي دور المكتشف ، فقد سبقني إلى ذلك القراء الذين عرفوك ولا يخالني ريب أنهم أحبوك ، وهؤلاء بالذات هم الغنى الروحي الحقيقي الذي يكتنزه أي كاتب . وإني لأطمئن أديبنا ، بغير طعن في أريحته وهو الريني الأصيل ، أنني لم أخط هذه الكلمات التي أملاها الود والإعجاب والفرح على أمل أن الرُّسل ستتوالى على بيروت حاملة سلال البيض والتين والزبيب من « حقل العزيمة » - وهي قرية المؤلف الواقعة في الشمال على طريق سير الضنية . فالدفع من أي نوع ليس وارداً ، شأن شيمة هذه الجريدة مع مدبج هذه الزاوية ، وإنما هو كلام أتبرع به لوجه الحق ونُصرة للقيم والجمال .

ولكن يبدو أن حظ ميخائيل مسعود عاثر معي كما هو حاله مع النقاد ، إذ ما كدت أخط السطور المتقدمة ، والتي تحدثت فيها عن حالي أكثر مما أخذت في الكلام عليه ، حتى تفجرت الأحداث الأهلية مجدداً في بلدنا ، فطويت أوراقتي وغادرت المؤسسة التعليمية التي أعمل فيها على عجل ، تاركة كتاب « مسعود » في أحد أدراج مكتبي على أمل العودة إليه بعد أيام . غير أن الأيام صارت شهوراً ، والمؤسسة التي أعرفها ترددت اليها فكدت أنكرها لما حل بها من عتث ! ويبدو أن المسلحين الذين نزلوا معهدنا العلمي ، وهم من نوعية « ثوار آخر زمان » ، قد راقهم في ما راق كتاب « أمثال وحكايات » فتبعثر بين أيديهم وتبدد . ولقد عثرت على غلافه في صف البكالوريا ، عفاً فقد غدا هذا الصف ، كما أصبح مكتوباً على الباب ، « غرفة خاصة للضباط . ويُمنع دخول هذه الغرفة تحت طائلة المسؤولية ! » وبلي ذلك إمضاء المسؤول وهو « أبو الليل » . أبو الليل ، أبو

مشطاح، تيتو، رومل، وكل رجالات التاريخ غطوا جدران معهدنا
بأسمائهم. قيل إن التاريخ لا يتكرر، وإذا ما فعل فهو في المرة الأولى
مأساة وفي الثانية ملهاة. أجل، وأي ملهاة و « مَسْخَرَة » ! ويا جمع الطوائف
والقبائل متى تصير وطناً حقيقياً لا فولكلوراً تهريجياً يقضي على الآمال
والأعمار ؟

(١٩٨٤)

نقولا قربان صانع الجمال الشعبي

منذ حين من الزمن وأنا أسائل نفسي عن أديب لبناني تقرأه فتخال كأنه اعتزم أن يكون في حياته سائغاً بارعاً ذواقاً يقلّب بين أصابعه الأحجار الكريمة والمعادن النفيسة ثم تستحيل بفطنته جلي ساحرة تغفو على نهود النساء فتزيدهنّ إغراء وفتنة. ولأمر ما، تُسأل عنه الطبيعة الوهابة المعطاء، شبّه هذا الإنسان الصّناع كاتباً يخوض في أعراسنا وهمومنا وسواقينا وبيادرنا، ولكنه ظلّ ما خلّته إذ قرأته صائغاً بدّل بأحجاره المتوهّجة مفردات لغة يتعامل معها بشغف ورهافة وحنان، كأنه قد أدمنها واستسلمت هي لصحبته وسنانه ولهي. فهو يتعاطاها، وهي ترفرف وتحطّ على ريشته شيئاً وهمساً ومرايا وتنهدات. إنه نقولا قربان، أصدر كتابه المصنف «نيسان» (دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٥٥)، ثم غاب قرابة عشرٍ وفاجأنا بعمله الريان «نشد الرّخام» (دار الروائع، بيروت ١٩٦٤). وعاود الاحتجاب وأطال، فبتنا نترقبه كما التائقون إلى الحرية نشرّب أعناقهم إلى مهديّ منتظر. ووقعت مؤخراً على خبر ثقافي دخل جسدي موجة فرح، استقرّ في يدي حبة كستناء دافئة في كفّ مقرورة. فلطالما تردد في خاطري هذا السؤال: نقولا قربان، أين أنت؟ وما أن أدبينا على أهبة إنزال كتاب جديد يُطلّ به، كما فارس الأسفار الطويلة، كما العاشق المدنف، إطلالة فوح عميق ويسقط في جوارحنا ليعرّش ويستوطن.

بتنا عطاشاً، يا نقولا، إلى نبعك المزبد المسكون بالجمال وإلى كلماتك الحلوة الثائرة وفكرك الشعبي الصميم. فما بالك محتجباً ضنيناً شحت

مياهاك التي كانت تقتحم علينا ركودنا الروحي وغربت أشرعك التي كانت تبحر في أوردتنا زوارق مخلة بالفُلّ والحب والبلايل. هل أثقلت عليك الحرب الأهلية اللعينة؟ شعبنا جنة ذبيحة وغدت اللعبة عبثاً بعبث. فكيف تبني وطناً كلما طوى السنين العاقرة العاهرة ازداد خراباً وبنياً وجنوناً، وانحدر إلى اللصوصية وضباع القم وإهدار الكرامات؟ ولكنّ للقلم رسالة لا سبيل إلى أن يطويها أحداً ويستقيل. يمضي النهابون إلى القعر وتبقى الكلمات، مها احلولكت الليالي، شاهدات على ضمير شعب يتوق إلى اللقمة الشريفة والغد البسام. في غابة ليل شعبنا يضيء «سراج الليل» الذي يحوم ببصيصه في الجنوب مقاومة باسلة وأكاد أقول، في خضمّ اليأس الذي نتمرّع فيه، خارقة، وإنا لما لهاتفون ومعنقون. يموت الطفيليتون والمتعصبون والسارقون والمتكالبون والكذّبة، ولكن شعبنا سيشقّ في قلب النور طريقه وسيلعلم، وإن طال المدى، عظام أجداده وأنداء نسائه وعيون أطفاله ومن ثمّ يبني وطناً، معبداً للهو السامي، حديقة، حصناً دافئاً، وراية العمل التي تخفق الأنواء بها فلا يلتوي لما عنق ولا تنطفئ لها عين.

نقولا قربان ليس أول أديب أمهله النقاد، أو أنهم لم يعطوه ما يستأهل من غناية وعمق واكتشاف، ولن يكون الأخير. ما همّ، فهو بذر مواسمه فدخلت بوابات الروح وما فات التاريخ الأدبي عندنا أن يسجل أن لبنانياً مرهفاً ولج مسام العربية من رذّة الحداثة والإبداع. أما النقد في ثقافتنا العربية المعاصرة فيكاد المرء أن يقول: رحمه الله. مرّ وقت غابر كان النقد الصحن الدائم على مائدة الثقافة بين ظهرانيها، وبرغم الامتلاء الفكري الذي لمّ بحياتنا الثقافية والسياسية فإن النقد الأدبي يتقهقر ويمحي من صفحة وجودنا الذهني. هل هي جنابة الإيديولوجيا على الأدب، أم أن العلوم الإنسانية قد تفرّعت وتشبّعت بحيث إن وجود الناقد الأدبي أضحي مسألة تحتاج إلى مساءلة وبحث وتقليب نظر؟

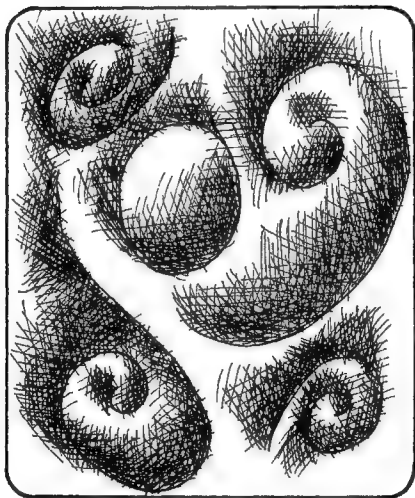
نقولا قربان لم ينتظر ولادة النقاد أو اهتمامهم ليكتب وينزل إلى سوق

الناس. فالموهبة تخرق الحواجز وميليشيات الأدب وتطرح نفسها عبْر صفحات تنصّب ندى كما الرعدة في الجسم العطشان. نتاج نقولا دلف إلى قلوبنا لأنه غمس ريشته في دواة الشعب، وأزهت حروفه على حفا في النوتة والفنجان والسرير، والمحرمة والغصن والمنجل، والبرنيطة والسلة والقرميد، والشلال والقبلة والفراشة، والشبابة والمعصرة والمطحنة والتينة وكوز الرمان... إن أدبه كمنجة تنقر على أوتار عزيزة لأشيانا المتفلتات وتشعل قناديل الذكرى المعتقة في خواحي حياتنا القروية السمحة البريئة. يمثل هذه اللهفة الدافقة الصادقة العذبة ويمثل هذا العشق المزهو المقمر للطبيعة يكون حب وطن اسمه لبنان. ولكن أدينا لا ينسى في غمرة حبه الغادق لطبيعة بلده ومعالم القرية الريفية أنه فرد من هذا المحيط القومي الأوسع ومن الحضارة الأشمل. فاللبناني الحق كان دائماً مشرع الصدر والقلب والعقل لنسائم الانعتاق وموجات التقدم، فالغيتو اختراع أصحاب المستعمرات ورسالة لبنان إلى قومه والعالم كانت على الدوام انتصاراً للحرية. ونقولاً يرفع عالياً هذه الآية ويهتف لمجد الإنسان وللمدينة الفاضلة والبطولة والخطوة والحياة. إن أدبه «مانيفستو» احتجاج يخرج من حناجر المتعبين والضارعين والصعاليك والحزاني والفقراء.

هنا مع أدب نقولا قربان سمّ واستارة وعمرد وكبرياء وامتزاج وانصهار ومعانٍ يكرّم تحيل بها اللغة في أمسها. ريشة نقولا ليست طالعة من ناووس قاموس عتيق مغبر، هي قصة براها الحنين وقصبتها ذاتية حساسة مترعة بالناس ومعاول الفلاحين، لاهنة على دروب الجمال والفن، مشغوفة بهذه القيّارة العربية التي صدّنت أنغامها عند كَنَبَة السلطان وعزّة القواميس. وخرج نقولا بإبداعه ونأى عن الرطوبة التي يأوي إليها بعض كرادلة اللغة من الذين يتعاملون معها جسداً بلا روح، ومعنى بغير أصداء، وكلمات فائتات كأنها خرجت من المعجم إلى أفواه البشر وجداول العيش الفوّارة، وليس حالها بخلاف ذلك تماماً، أي أن لغة الناس ومجاري استعمالها وما طرأ عليها من تقلّبات اجتماعية وحضارية هي التي تؤدّي جميعها إلى نشوء معجم منفتح لشعب متطور تحت أهداب

الشمس . اللغة ، لغتنا ، ليست قلادة ميتة . إنبا تحت الأقلام الزاهية من
أمثال قلم نقولا قربان مهرجان فرح ورعاية نضال وقارورة حب .
(١٩٨٥)

نشيد الرخام والشمس



ميشال أللار يسوعي خارج السرب

محنة الحرب الأهلية والوطنية والقومية معاً جعلتنا نعاشر الموت ونألف التضحية ونستقبل أخبار الشهداء كل يوم وكأنهم الضريبة التي يفرضها الوطن عند كل شروق وغروب من أجل استمرار حياته وديمومة تاريخه. ومع ذلك فكل شهيد يسقط تهتز مع استشهاده شبكة واسعة مرهفة من العلاقات الإنسانية والصدقات الدافئة والصلات الحميمية وتأوهات الحب وجر الذكريات وألف ألف وقفة وقبلة وموقف.

وعندما جاءني الخبر ازدحم الأسي في صدري وران علي الصمت والانقباض. فالأب ميشال أللار خسارة حقيقية للعلم والوطن والصدقة. وعندما ولجت الشظايا القاتلة إلى غرفته كان، ربّما، مكبّاً على المعرفة بين كتبه وأوراقه، فهو قد وقف حياته، شأن الرهبان الصّديقيين، على العلم يجمع ذرّاته ويوحّد بينها ويدفع بها مقالات ودراسات ومحاضرات ومؤلفات. لقد أمضى قرابة عشر سنوات ينقّب في مصنفات الفلسفة الإسلامية بحيث أنجز عملاً أكاديمياً حول «الأشاعة» هو أطروحته للدكتوراه. بيد أن ميشال أللار كانت تتفتح عيناه الجميلتان على الحياة، وكان عنده من نبض الفكر والتحسس الوجداني والإدراك المستبطن والانفتاح الأوروبي ما جعله يبتعد رويداً رويداً عن الإيقاع الأكاديمي ويلج حلبة المعلوم المعاصرة والقضايا الملحة، مستضيئاً بالأفكار التقدمية والسلوك المتحرر. لقد غدا، مع قبضة جريئة من اليسوعيين ورجال الدين المسيحيين، وجلّهم من الأجانب الذين يعايشون العصر وينصتون لإيقاعه، عنصراً مزعجاً وغير مرغوب فيه بالنسبة إلى الكنيسة اللبنانية، وخصوصاً

أن المآسي الراهنة برهنت بجلالة كلي أن هذه الأخيرة، في شطرها النافذ والحاكم، ليست أحياناً سوى مؤسسة منسية من محاكم التفتيش، وصار كثير من الأديرة. كما كان يحدتنا الآباء والجدود بشقة ومرارة، مستودعاً للتخطيط الدنيوي الخطير وجبانة للأسلحة الفتاكة. لهذا لم يصدر بيان في السنوات الأخيرة عن اليسوعيين المستنيرين في عدد الأحداث اللاهبة في لبنان إلا وكان اسم ميشال ألالر. رئيس معهد الآداب الشرقية التابع لجامعة القديس يوسف، ماثلاً بارزاً فيه. وبدأ هذا النفس اليسوعي غير مألوف في هذا الوطن الصغير الذي عانى الكثير، وما يزال، وبنوع خاص من المؤسسات اليسوعية التعليمية التي تقارب الخمسمائة! فقد غرست في نفوس الناشئة اللبنانية التي تخرّجت على أيديها تربية مشوهة تقوم في جوهرها على مفهوم «الألينة» والاعتراّب والتضليل والتخريب النفسي والهجرة الداخلية. إن ما نشهده اليوم من خراب مريع يعود في أحد جوانبه التأسيسية، بلا شك إطلاقاً، إلى التربية اليسوعية المستوردة، ذات المظهر البورجوازي الناعم الأنيق، لكنها تحمل في طياتها بقايا الانتداب، قولاً وعملاً، وجذور الطائفية التي يسعى حُماها إلى أن يظل هذا الساحل الشرقي العربي امتداداً للغرب الإمبريالي، ومضجماً مخفياً للسياحة الداعرة، ومأوى فسيفسائياً للأقليات في الوطن العربي.

بيد أن ميشال ألالر كان خروجاً على القاعدة اليسوعية التقليدية. ومنّ يطالع أعداد مجلة «أعمال وأيام» الصادرة بالفرنسية عن المركز الثقافي الجامعي، الكائن عن غمّد وسابق تصور في محلة الحرج، والذي كان يشرف على نشاطاته الأب ألالر، لا بد لقارئ هذه المجلة أن يلاحظ أنها تطلّ على المشاغل اللبنانية والقضايا العربية، ومن بينها المعضلة الفلسطينية، بروح علمية جديدة، وأنها تبادر إلى التفاعل مع ما يحرك مجتمعا من موضوعات. كان ميشال ألالر يعيش في محيط لبناني متزمت ويسوعيّ محنط، لهذا بدت لي خطواته الثقافية متسمة بالحيطة والحذر، فهو يمشي في حقل مزروع بالمحافظة والرّدة والتعصب، لكنه كان يتقدم ويتخلق حوله الشباب والطلبة الجامعيون النازعون إلى التغير ومواكبة

العصر والتنفس برئة لا تعطيها الطائفية البغيضة. كان هذا الأب اليسوعي، الرّبع القائمة، يمشي بالخير ويبذر النور في مسالك غطتها العتمة طويلاً، وبحكم مركزه الفاعل فقد كان شعلة ضياء وبركة وعنصر جذب وتوحيد. لقد حملنا على أن ننتميه أن يسوعية، عبّر أمثاله، مشتقة من يسوع، وأن يسوعاً يعني المحبة والتآخي والتلاقي على ما ينفع الناس ويرتقي بهم.

ويا صديقي الغائب، سوف يذكرك الكثيرون من المثقفين في لبنان وقد أمضيت ربع قرن في ربوعه، أي نصف عمرك بالتمام، فالوطن، في ليله الطويل ومخاضه العسير، بأمر الحاجة إلى أمثالك من رجال الدين المتحررين المتقدمين عقلياً ومسلحياً. ولن أنسى ما حييت ذلك الرجل الوديع الذي يتكلم بصوت خفيض هامس، ويتسم بخفّة فيشرق وجهه ويشع النور الأبيض في أساريره. ولن تغيب عن بالي لقاءاتي الودودة بهذا الباحث اليسوعي الفاضل، ففي هذه الجلسات كان ميشال ألالار يطرح جانباً التحفظ فتتصل بيننا الساقية التي تحدث عنها محمد النبي في قوله إن من القلب إلى القلب سبيلاً، ويشرع الأب الصديق يكشف لي عن شجونه ومصاعبه ومكنون نفسه، وهو مطمئن البال إلى أنه يخاطب إنساناً تقدماً!

(١٩٧٦)

شمران الياسري القلم الذي يبكيه النحيل

ليست شراكة القلم هي التي تحملني على الكتابة عن شمران الياسري، ولكنها اللوعة التي سكتني، وأنا الباحث عن هدوء البال وراحة البدن في أحضان الجبل، عندما طالعت خبراً صغيراً. وبواعث اللوعة عديدة جارحة. فها أن كاتباً عربياً ناضجاً يقضي نَحْبَه في حادث مؤسف في «براغ» حيث كان يعمل مراسلاً لوكالة «وفا». فتتلف الصحافة الخبر الذي بثته الوكالة وينشره محرر الصحيفة التي أطلعها عادة، ملحقاً بخبر آخر عنوانه «وفاة طفل أصيب في الفاكهاني» (١٩٨١/٨/١٨). ولو لم أقرأ هذا النبأ الأخير للوكالة نفسها لما دريت في آخر سطره أن شمران قد رحل عن دنيانا غريباً منفيّاً. سخریات الأقدار التي طالما كتب عنها «أبو كاطع» تحلّ به، كما حلّت بأمثاله من الساخرين ذات عصر مضى، إذ يقال إن بديع الزمان الهمذاني أنزل القبر ثم استفاق فيه، وقد عاد أنطون تشيخوف إلى وطنه نعثاً في قطار محلّ بالسلك! إسم «شمران الياسري» لم يعن شيئاً لمحرر الصحيفة فأدرجه طي خبر آخر وحشره!

هذا الرجل النحيل المديد القامة كأنه من بقايا رماح «سمهر». وهو يفيض أناقة ورقة ودماثة. ومذ تعرفت إليه في بغداد، وقد فدت عليها مشاركاً في أحد المؤتمرات العلمية، حتى أشاع في نفسي الثقة والمودة. أمثال شمران لا تعرف إليهم، وإنما تحسب أنك تعرفهم منذ زمن بعيد وأن ظروف الحياة حالت دون اللقاء. ومع أنني لم ألتق به إلا مرات معدودات فقد ولج روحي وترجّع منها في مكان عزيز. ونعني قرابة سنة وإذا بهذا

الرمح الأنيق بطالعني بغتة في بيروت قبل أن نزل بها الخراب ولحقته لعنة
الإمبريالية التي حولت ماضي أسواقها أطلالاً. ومشينا عبر شوارع بيروت
التي يشاهدها شمران للمرة الأولى، واحتسبنا المجعة لدى « طانيوس »
وكان قد صار « كوسموس » عند باب إدريس، وأفضنا في أحاديث
شتي. وكنت في تلك المرحلة غارقاً في مشاغلي، فزودت شمران الذي جاء
بيروت لحضور مؤتمر، برقم هاتفي ومواعيد العمل، وقلت له إنني تحت
إمرته خارج دوام عملي ودوام مؤتمره أحله حيث يشاء ليتعرف على معالم
لبنان ولياليه ومأكله. لم تكن دعوتي مجاملة، ولكنها كانت دعوة صادقة
من القلب. ولم يتصل شمران برغم انتظاري وترقيي، وعلمت بعدها أنه
عاتب عليّ فتألمت، وأدركت يومها أن الأسلوب الأوروبي في التعاطي بين
الأصدقاء لا يصلح بعد بين ظهرائنا!

شمران الياسري يلتاع لفقده الباكر مثقفو العراق وأهله ونخيله لأنه في
ما خطّ وكتب عراقي صميم، وإن كان فؤاده عربي الهوى أممي اللغات.
وليس غريباً عليه أن يكون معنياً قبل موته الفادر بتأليف معجم يضم
المصطلحات العامة العراقية وما يقابلها في العربية الفصحى، إذ أخصّ ما
تميز به شمران أسلوبه الحاشد بالمفردات والتراكيب العامة، بحيث تحتاج
ولا شك إلى أن تكون عراقياً لتتذوق حلاوة أدبه. وقد أهداني شمران
روايته « الزناد » ذات الأجزاء الأربعة، فامتنت عليّ بعراقتها المفرقة،
وقد « استعارها » مني أحدهم بعد إلحاح، وكم أشعر الآن بالفصّة
والغضب لفقدها، فلقد غدت بعد غياب شمران أثراً لا سبيل إلى
تعويضه، وكم يشوقني لو أنها ظلت في مكتبي أيقونة غالية تذكّرني
بصاحبها ذاك الإنسان الطيب الأنيق الخجول.

أن يموت كاتب بعيداً عن مياه وطنه تلك مأساة حكومات أمتنا التي
تأكل بنيتها بدل أن ترضعهم. فكم من مواهب مسفوحة بين الماء والماء،
وكم من مظالم نازلة لعل مرتكبيها هم أول النادمين، لأن الليل لا يلد إلا
الليل، ولا دواء شافياً لأسقام أمتنا المزمته سوى الديمقراطية واحترام
كرامة الفرد العربي. يمكنك شراء آلة واستيراد مصنع، لكن الكفاءات

والمواهب والالتماعات هي ابنة الزمن ومخاض الحقب، فلماذا ندأب على
إهدار ثروة الأمة الحضارية، أم أن الفكر عندنا شأن البترول مآله الضياع
في مهب رياح خماسينية لا بكلّ ذا صغير!
أغنت عيون شمران الياسري على حلم النخيل، واستراحت آذانه من
الصغير، فمتى ينعم هذا الوطن الكبير بخبز الحرية وبحبوحة الشورى، تُرى
متى ينقطع الصغير؟

(١٩٨١)

عبد الرحمن اللبان نموذج بير وتي جديد

قالت لي السمراء بلون الحنطة والنبيد: كيف يموت الدكتور اللبان ولا تكتب عنه زفرة وأنت المحب وأنت الوفي؟ بلى، يا عزيزتي، إني فاعل. فنحن منذ سنوات لا نصنع سوى أن نسفح الدمع ونرثي أحياء وأصدقاء مضوا وتركونا نكابد اللوعة في زمن الضياع وموج الطوائف يعلو وهدير العصبية يعمي الأبصار. حتى أننا عندما نأوي إلى بيوتنا ونخلع الثياب نخال عندما ننفضها أن التعب يهطل منها وتتناثر خييات وآمال كالشهب تهوي. بيد أننا لن نستلم ولن نجعل اليأس يأكل من لحمنا. العدمية عملة المهزومين وشعار البائسين ونفق المستسلمين، والإصرار والصمود والصبر لم تُخترع لأيام الدعة والسكينة وليست كلمات خطابية للزينة والصدى. وشعبنا الممزق الطمعين يثبت كل يوم، برغم ألف ثغرة وثغرة، أنه أهل للحياة والإبداع. العجيب في أمره أنه، وسط الظلمات، يستبسط أسلحة المقاومة ويقلب الطاولة ويهاجم. وحكايته مع الإسرائيليين، خبراء التعذيب والنازيين المجدد، يافطة دم ونور.

وبعد، أحقاً أن عبد الرحمن اللبان قد رحل (٨٤/١١/٢٠) من غير أن يلقي علينا ولو تحية وداع؟ لقد انفجر قلبه شظايا وخرج من صدره طائر رفرف ومضى. كيف ذهب الدكتور على حين غرة ونحن بحاجة ولهفة إلى فكره وساعديه ودفق مواهبه، وهو ما ضن بها مرة وما نكص. ما باله أخلف العهد والوعد وأسقط الأمانة وشد أشرعته إلى البعيد البعيد والليل عاصف والنفوس مبلبة، فلم يترك لنا فجوة أمل أو فسحة زمن لنلوح بالمناويل ونعزف له من أشواقنا ترنيمة ومن حبنا له وإعجابنا به

وحرصنا عليه عقْد ياسمين وشهقة صدر حزين.

ذهب الدكتور اللّبان باكراً في شرح الرجولة والعطاء (١٩٢٤ - ١٩٨٤)، والباكور ليس غربياً عليه ولكننا لم نحسب أنه سينقاد اليه أيضاً في موضوع الحياة أو تأخذه به المنون ولا رادّاً لحكمها. ففي عز الأيام العصية من حربنا الأهلية ذات الأنياب والأهوال، حينما غادر الكثيرون من «الرجالات» أرض الوطن ليتفأوا الراحة والنعم والسهر والمناء هنا وهناك من جوانب المعمورة اللاهية، بقي عبد الرحمن اللّبان في بيروت المنهكة المقرحة الجفون. ولكم شاهدته على كورنيش الزرعة في الصباحات المتوترة يسلكه باكراً ماضياً إلى العمل، إلى مستشفى دار العجزة الإسلامية، وهو الذي جمع في شخصه ورشة من الاهتمامات والصّوبات والشواغل والهوايات. هذا الإنسان الذي فقدناه إنما كان جذوة ثقافة. لقد أعطانا النموذج الجديد للبيروتي، وليس هو البيروتيّ التاجر الذي لا يعرف من الحياة سوى النارجيلة ويتحصّن في أمية وجهالة ولا مبالاة. إن الدكتور اللّبان خرج من صلب بيروت الشعب، وظل في لهجته الكلامية وردود فعله وتطلعاته الوطنية على العهد مقياً. وكم هو جميل هذا المسار الذي سلكه صُعداً في الالتزام بقضايا الناس. لقد أصبح على رأس «النجدة الشعبية» فكثرت به وكثرت بها. خطأ بها نحو المؤسسة الكبرى، وسافر في حية وحاسة ليأتي لها بالملايين من التبرعات التي كانت المداكم الأساسي في نهوض صرّحها المتنامي مستوصفات ومستشفيات. وسمعناه قبل ما يزيد على الشهرين من على منّة ملعب شبيبة الزرعة يخطب داعياً إلى العفانيّة والإنصاف والتحرير. فكان الموقف والموقع والرأي شهادة ووساماً لرجل علم لم ينس جذوره ولم يتخلّ عن أصالته وعن الدور المأمول الذي يجيش في الصدور حيال طاقة مبدعة كالتّي كانها عبد الرحمن اللّبان.

كان أملاً مشعاً للمتعبين الذين أرهقتهم الحياة وأصابهم القدر في أعصابهم. ثم جاءت حربنا الفريدة واهتزت جُمَل عصية وعقول، فسكب الدكتور اللّبان فيها من علمه وعقله وقلبه، وكان الأب الحدودب

للكثيرين من الذين ضرب نفوسهم القلق وهدّتهم الأرق. وأذكر أني سألته خلال لقاء ، وكنا بعد ما نزال في أهوال سنتي ٧٥ - ٧٦ من حربنا الأهلية ذات السبع أرواح ، عن الحالات العديدة التي يتصدى لعلاجها في هاتيك الأوقات ، فقال لي: الصعوبة ليست في هذه الحالات لأنها قابلة للشفاء بواسطة الأدوية ، وإنما الأمر الحقيقي يكمن في الناس كل الناس الذين يصمدون الآن ويتماشكون بحكم المسؤولية ولكن على حساب أعصابهم ، وعندما تهدأ الأحوال ستراهم عندها يتهافتون ! ولكم استعدت قوله هذا خلال العام الحالي ، ١٩٨٤ ، القاسي على شعبنا حتى الوجد والبكاء ، إذ غدا جمع غفير من المواطنين يتناولون الحبوب المهدئة والمنومة على أنواعها لكنّها القضيامي ! وخربت جُمْل عصبية وتمايلت نفوس وعانت أرواح. إن شعباً بأكمله على شفير التهافت والانتحار الجماعي ، فمتى يدرك حَمَلَة السلاح من فئة الرؤوس الحامية أن المقامرة المتأدية ستودي بنا جميعاً إلى الهاوية ؟

ولكن عبد الرحمن اللبّان في كل ما تعاطى من أفعال ، وهي جنة ومتنوعة ، كان هناك نغم واحد يسري في عطاءاته : إنه الفن . كان محباً للغناء والموسيقى التراثية الأصيلة ، لهذا عمر منزله بمكتبة موسيقية منتقاة مجهزة ، وكان آخر من نزل هذه الصومعة ضيفاً مكرماً الشيخ إمام لدى زيارته مؤخراً لعاصمتنا . ومتحف سرسق عرف هذا الوجه البشوش ، فقد كان عضواً في المجلس القيم على هذا المتحف الوطني ، كما شارك غير مرة في اللجنة التحكيمية لصالون الخريف الذي كان تظاهرة فنية مرموقة يقوم بها المتحف كل عام ، ثم وفدت الحرب فقضت على تألق الصالون واستمراريته كما قضت على العدد الوافر من الآمال والمطامح في بلدنا . وكان مقدراً أن يشارك عبد الرحمن اللبّان في صالون الخريف لهذا العام الذي افتتح في هذا الشهر عضواً في لجنته التحكيمية ، لكنه رحل قبل أن يعطي رأيه وهو الفنان المراهف الذي كان يرسم على سبيل الهواية ولم يكن يوقع أعماله . فالكثير من كاسيتات مرسل خليفة زيتت أغلفتها ريشة اللبّان ، والكثير من قصص الأديب المبدع محمد عيتاني كانت صورها

التزيينية من عطاء ريشة اللبان. وإذا أقلب بين يدي مجموعة أحفظ بها من الرسوم المائية لعبد الرحمن اللبان أتذكر حساسية هذا الإنسان وجهه لأبناء بلده بغير تمييز وتعشقه لهذه المدينة بيروت التي خرج من بين أضلاعها ورسم بحرها ورأس بيروتها وصبارها وصيادها وناسها الشعبيين المحبين. ولقد كان عبد الرحمن اللبان في صميمه موجة شعبية بيروتية، لكنها موجة حُبلى بالموهبة والتنوع والتطلب والمعرفة والوطنية. قالت لي السمراء بلون الحنطة والنبيد: هلاً كتبت عن عبد الرحمن، فأجبها: وما نفع الكتابة في رجل يكتبه الأسف والأسى والدمع والحنين! (١٩٨٤)

بنجامين مولويزي شاعر هارب من نعشه

يا شاعري، توالى المناشدات من أنحاء الدنيا لإنقاذ شبابك من
أنشطة المشنقة، ولكن حكام بريتوريا عقدوا العزم على التخلص من أحد
أصحاب الدواوين، فالشعر سلاح خطر. والشعر والعنصرية كما الحب
والبغض، كما النار والنفط، لا يأتلفان أبداً. والمستبدون في التاريخ كانوا
دائماً يُضَمرون العداوة الغريزية للثقافة، أليس أحد زبانية هتلر هو القاتل
إنه ما أن يسمع بكلمة الثقافة حتى يضع يده مباشرة على مقبض مسدسه؟
ولمدة غير بعيدة لاقى مواطن في بلد عربي مصيراً مروّعاً، لقد تسمت
تصفيته جسدياً. وذنبه كان كبيراً وشنيعاً لا يُغتفر، كان صاحب مكتبة
يبيع الوعي والإحساس والمستقبل الطالع من صفحات الشعراء والأدباء
والمفكرين!

أنا لم أعرفك يا مولويزي، لقد تم التعارف بيننا صباح الجمعة في ١٨
تشرين الأول ١٩٨٥ في باحة سجن بريتوريا المركزي، وذلك عندما
غدوت جسداً متارجحاً يخفق كالراية وينادي شعباً مسحوقاً حتى العظم.
وفي خارج السجن، غيّرت المدن والحقول والوديان وفي ثقب الأكواخ
وفوق بيوت التنك الممتدة، مضى جسدك يقرع الأبواب ويهز الأفتدة. خال
حكام جنوب أفريقيا أنهم حشروك في نعش وأطبقوا عليك غطاء
سميكاً، ولو أتيج لوالدتك الملتاعة «ماميكي» أن تفتح هذا النعش لما
عثرت فيه على شيء، ولاتهمت الجلادين عندها ياتلاف قامتك المطفأة
ذات الثلاثين ربيعاً. أقلع جسدك خارج نعشه يجول بين المزارع ويدخل
على المعدمين في أماسيهم الحزينة يشدّ على أيديهم وينزع من قلوبهم اليأس

والقنوط. جسدك المتأرجح صار جرساً وشعرك إنجيل الفقراء. إرتكبوا
التصفية الجسدية في حق شاعر، وما درّوا أنهم إذ قتلوه لقد ابتعثوا فيه
حياة دائمة متجددة كمواسم المطر والعشق.

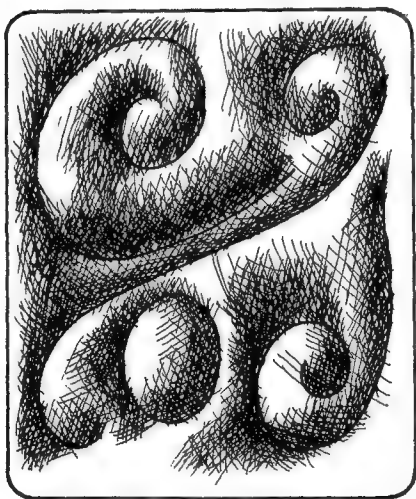
أعذّرني يا بنجامين، أنا لم تسقط بين يدي لآلئك الشعرية ولم أنتسم
هواء الحرية يصعد من حزمة النور التي تضيء طيّ إهابك الأسود. ولكن
مطامح الشعراء وأحلامهم واحدة: عالم جميل لا خِسة فيه ولا ظلم ولا
هوان. تختلف الأثواب الشعرية غير أن النعم هو إيتاه والخلم الوردي
الأخاذ ذاته يسري في مفاصل الأبيات الموحجة وينداح مع مراكب
الشعر السكري، برغم تباين الألسن والأبجديات واختلاف طريقة الكتابة
طولاً أو عرضاً ومن اليمين أو الشمال. لستُ داعياً الشعراء ليحكموا
العالم، فهذه مهنة لا تتناسب ومثالياتهم ولا تتفق مع الصفاء والبراءة
والوجد التي ترشح من أفلامهم. ولكنهم لقرون خلت، منذ هوميروس أو،
ما قبله بكثير، مذ تَبَصَّر وجدان في تاريخ الإنسان واضطرب خاطر،
يتربعون قلقين سعداء في قلوب البشر يحكمون بسلطان الحب وصولجان
الإبداع.

رمّوك، يا بنجامين مولويزي، بتهمة ملفقة، ثم عندما أعيتهم الحيلة في
إدانتك دفعوك وأنت تحت جبل المشنقة لطلب العفو، بحيث اذا ما
أقدمت عليه اعتبروا هذا الالتماس «اعترافاً» وبالتالي يجهزون عليك
عندها بناء على هذا الاعتراف. ولكن الخديعة لم تنطل عليك وظللت
ثورياً يقطاً صلباً، ولم ينل منك هؤلاء العنصريون الذين استوطنوا بلادك
ثم انتزعوها من أهلك وعشيرتك وجعلوها بثرواتها الكبرى مرتعاً لهم
وجنةً مغتصبة. رمّوك بجرمة قتل فردية أو بالتستر عليها، ونسوا جريمتهم
العظمى في قتل شعب بأكمله. ألم يقل لأمشال هؤلاء الأوغاد زميلك
الشاعر الجليل فكتور هوغو: قتلُ امرئ في غابة جريمة لا تُغتفر، وقتلُ
شعب آمن مسألة فيها نظر! تحرير الأوطان من مغتصبيها مسألة لا
تساهل النظر عند جمعة الأموال وقتل الشعوب وطلبة الدماء.

لقد كنتموا صوتك أيها الشاعر، كما هم يحشرون الآلاف في السجون

ويسلطون الرصاص والسيّاط والكلاب على شعبك المنتفض منذ أشهر ضد
التفرقة العنصرية والظلمات التي تكبله، وتشهد جوهانسبورغ وسويتو
والكاب وإثلون مشاهد الاضطهاد ونوافير الدم. ولكن حتى متى تغلب
أدوات التنكيل على الخبز والكرامة وزجاجات الحليب، حتى متى تُداس
تواريخُ وصدورُ نساءٍ وابتساماتُ بيضٍ لأطفال سود؟
يا شاعري، موتك البشع دليل ساطع على أن النظام الحديدي المحضن
تخترقه قصيدة شاعر وأن شعباً يلد الشعراء جدير بأن يصنع الحرية.
(١٩٨٥)

فہرست المحتویات



الإهداء	٥
الروضة البهية بقلم حبيب صادق	٧

(١)

صراخ وهمس

وطنُ الياس	١٥
« أفوتك بعافيه »	١٨
عناقُ الأبيض والأسود	٢٢
دُعاء رَمَضان	٢٥
الفراشات تغطّي لبنان	٢٨
إلمسها ولكنّ بحنان	٣١
الأمل والعمل	٣٥
وردة تعبّر الحدود	٣٨
الرُّجراج	٤٢
السُّلطة والكر كول وفن التنجيم	٤٦

(٢)

الحب يدعى «نهديّة»

سُوناتَه على البيانو	٥٥
----------------------------	----

- من دفتر « نهديّة » ٥٦
- الكيمياء العجيبة ٦١
- الياسمين الحزين ٦٣
- تحت شجرة الانتظار ٦٥

(٢)

أرقة وورق

- الورق الحنون ٦٩
- الكتابة بالنار ٧٣
- « الجربندية » ٧٦
- القابلة التي نفتقدها ٧٩
- الكاتب وصحن الفول وسرير بروكست ٨٢
- شكسبير البعلبكي ٨٥
- خواطر طيارة ٨٨
- لغة الشعب ولغة الجرائد ٩١
- والعود أحمد ٩٥
- أدباء الحبر وأدباء الحياة ٩٨

(٤)

ذكريات حنون

- الصقيع ١٠٥
- ماذا نروي لأطفالنا ؟ ١٠٩
- « نوستلجيا » ١١٤

- زمن الحلاب والصّر ١١٧
- الدّعْشُوقَة ١٢١
- أين إيزيس ؟ ١٢٣
- عيدك أيها القديس ١٢٦
- حيث التفت القلب ١٢٩

(٥)

أسماء دافئة

- أحمد حاطوم ، لغوي يتسم بالرحابة ١٣٥
- محمد دكروب ، هذا الجندي غير المجهول ١٣٩
- ميخائيل مسعود ، أديب من « حقل العزيمة » ١٤٤
- نقولا قُربان ، صائغ الجمال الشعبي ١٤٨

(٦)

نشيد الرخام والشمس

- ميشال أُللار ، يسوعي خارج التّرب ١٥٥
- شمران الياسري ، القلم الذي يبكيه النّخيل ١٥٨
- عبدالرحمن اللّبان ، نموذج بيروتيّ جديد ١٦١
- بنجامين مولويزي ، شاعر هارب من نعشه ١٦٥
- فهرس المحتويات ١٦٩

صدر
للدكتور أحمد علي

- ☆ ثورة الزنج، وقائدها علي بن محمد (١٩٦١)
- ☆ ابن المقفع، مُصلح صرعه الظلم (١٩٦٨)
- ☆ الإسلام والمنهج التاريخي (١٩٧٥)
- ☆ طه حُسين، رجل وفكر وعصر (١٩٨٥)
- ☆ ثورة العبيد في الإسلام (١٩٨٥)
- ☆ تحت وِسَادتي، مقالات واعترافات وذِكريات (١٩٨٦)
- ☆ العهد السمرّي للدعوة العباسيّة، أو من الأمويين إلى العباسيين (قيد الطبع)

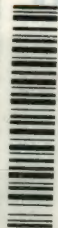
Aḥmad 'Olabi



Taḥta wisādati

is, confessions, souvenirs

Bibliotheca Alexandrina



1031436

Dār al-Fārābī
Beyrouth 1986